

الدُّعَاةُ

مؤلفيه

عباس محمود العقاد ابراهيم عبدالقادر المازني

الطبعة الرابعة



التراث والعلوم الإسلامية لكل الشعب

تصدر عن مؤسسة

دار الشعب

للحفاة والطباعة والنشر
وقطاع النشر

رئيس مجلس الإدارة

مهندس / (أحمد محمد شعراوي)

رئيس قطاع النشر والتوزيع

سعاد فريد

مكتبة دار الشعب

٢٠٠٨ : ٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة .

ت : ٣٥٥١٥٩٩ / ٣٥٥١٥٩٨

ف : ٣٥٥١٨١٠ / ٣٥٥١٨١٨ / ٨١٠

فاكس : ٣٥٥٤٨١١ - ص ب ١٤ رقم بريدي ١١٥١٦

الدُّعَاةُ

(في الأدب والنقد)

لمؤلفيه

ابراهيم عبدالقادر المازني

عباس محمود العقاد

الطبعة الرابعة

فہرستیں

الجزء الأول

الصفحة	٣	٥	١٢	٢٧	٣٦	٤٥	٥٤	٥٧
مقدمة								
شوقي في الميزان (توطئة)								
رثاء فريد								
رثاء عثمان غالب								
استقبال أعضاء الوفد								
النشيد								
النشيد القومي								
صنم الالاعيب (١)								

الجزء الثاني

[illegible]

مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) فان كان للسكوت عن الخوض في احاديث الادب دواع فقد زال ذلك الداعي اليوم ، وقد تجددت دواع للكتابة في اصوله وفنونه ، اخصها الامل في تقدمه ، لالتفات الاذهان الى شتى الموضوعات ومتشوع المباحث والحدرد عليه من الانتكاس لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسلسل الاقلام المفموزة والمآرب المتهمة الى حظيرة . وكتابنا هذا مقصود به مجازاة ذلك الامل وتوفى تلك العلل . وهو كتاب يتم في عشرة اجزاء (١) . موضوعه الادب عامة ووجهته الابانة عن المنهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المنهب في بضع السنوات الاخيرة وراوا بعض آثاره وتهيات الاذهان الفتية المتهممة لفهمه والتسليم بالعيوب التي تؤخذ على شعراء الجيل الماضي وكتابيه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب في اجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبسودا ونرجو ان تكون فيه موفقين الى الافادة

(١) لم يظهر من الديوان في النقد والادب الا جزعان طبع اولهما في يناير ولانيهما في فبراير سنة ١٩٢١ واميء طبعهما بعد شهرين

مسعدين الى الغاية . واوجز ما نصف به عملنا - ان افلحنا فيه -
انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط
بينهما ، واقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انساني مصرى
عربى : انساني لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من
تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح
الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة .
ومصرى لان دعائه مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لان
لغته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة ادبية ظهرت في لغة العرب
منذ وجدت ، اذ لم يكن ادبنا الموروث في اعم مظاهره الا عربيا
بحثا يدير بصره الى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى ان تحطم كل عقيدة
اصناما عبت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا اوجب وايسر
من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه في جميع حالاته ، فلهذا
اخترنا ان نقدم تحطيم الاصنام الباقية على تفصيل المبادئ
الحديثة ، ووقفنا الاجزاء الاولى على هذا الغرض ، وسنردفها
بنماذج للادب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان
لاقمارها . فان اصبنا الهدف والا فلا اسف . وحسينا بهذه
القدمة الوجيزة بيانا .

شوقي في الميزان (توطئة)

كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضججات في البلد ، لا استنخاما لشهرته ولا لمنعة في أدبه عن النقد ، فان أدب شوقي وورصفائه من اتباع المذهب العتيق هدمه في اعتقادنا أهون الهينات . ولكن تعففا من شهرة يزحف اليها زحف الكسبيح ، ويضمن عليها من قولة الحق ضمن الشحبيح ، وتطوى دفائن أسرارها ودسائسها طي الضريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا ازدروا شيئا لسبب يقنعهم لم يبالوا أن يطبق الملا الأعلى والملا الأسفل على تبجيله والتنويه به فلا يعنيانا من شوقي وضجته أن يكون لهما في كل يوم رقة ، وعلى كل باب وقفة . وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وغدا لولا أن الحرص المقيت أو الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفا يستثير الحاسة الاخلاقية من كل انسان وذهب به مذهب تعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب ان لا فرق بين الاعلان عن سلعة في السوق والارتقاء الى اعلى مقاوم السمعة الادبية واهياة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين ان الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة ان يشتري السنة السفهاء ويكم أفواههم ، فاذا استطاع ان يقيم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول

والزموذ فى مناسبة وغير مناسبة وبحق أو بغير حق فقد تبوا مقعد
المجد وتسئم ذروة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر ،
وسحفا للمقلدة والانصاف وبعدا للحقائق والظنون ، وتبا للخجل
والحياء ، فان المجد سلعة تقتنى ولديه الثمن فى الخزانة ، وهل
للناس عقول ؟ ؟

ومن كان فى ريب من ذلك فليتحققه فى تتابع المدح لشوقي ممن
لا يمدح الناس الا ناجورا . فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك
الخرق المنتنة نعتى بها بعض الصحف الأسبوعية . وعرف من لم
يعرف انها ما خطقت الا لثلب الاعراض والتسول بالمدح والدم وان
ليس للحشرات الادمية التى تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء
وذوى المآرب والحزازات . خبر مسعوم تستمرته تلك الجيف التى
تحركها الحياة لحكمة كما يحرك الهوام وخشاش الأرض . فى بلد
لو لم يكن فيه من هو شر منهم لما تواروا جوعا أو تواروا عن العيون .
هذه الصحف الأسبوعية وهذا شأنها وتلك أرزاق أصحابها تكيل
المدح جزافا لشوقي فى كل عدد من أعدادها ، وهى لا تنتظر حتى
يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، أو اثر يذكر ، بل تجهد نفسها فى تمحل
الأسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصيدة جديدة والا
فالقصائد القديمة المنسية فى بطون الصحف ، وان لم يكن شعر
حديث ولا قديم فالكرم والأريحية والفضل واللوزعية ، وان ضاقت
أبواب الدعاء والأطراء فقصيدة أو كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطال
عليه بالشم ويمير بالتقصير عن قدر شوقي والتخلف من شأوه .
وهكذا حتى برج الخلفاء وأنهتكت الدسيسة . والعجب ان يتكرر
هذا يوما بعد يوم ويبقى فى غمار الناس من يحتاج الى ان يفهم كيف
يحتال شوقي وزممرته على شهرتهم ومن أى ربح نفخت هذه
الطبول .

وشرفاء الناس كافة يشترأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة
ويعلمون انها آفة واى آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقييمها

وتقدمها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصرى وصمة ، الا شوقى .
فانه يعتسدها آلة شرف واحدوثة حسنة فهو يغمس نفسه في
تقريفها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى ان ينصب عجاجات من
أوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية في مثل ثروته بصر به
يمد يده بالسلام الخفى لاوئك الأوباش في خلوة من خلواته لراها
نقيصة يخزى لها ويود أن تكتم عليه . ونقول في مثل ثروته اكتفاء
بعزة العرف ولا نرهقه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانية
وشمم افذاذ المبقرية . فاما أن تكرم البطالة كما تكرم جلال
الأعمال ، وأن يدعى الناس الى المحافل لجمد التسول كما يدعون
لحمد الاحسان والمروءة وأن يتنادى الى الاحتفاء بناهشى الأعراض
كما يحتفى بمهذبى الأرواح وهداة العقول ، وأن يؤيد تغاية المجتمع
وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وافراد المصور ، قتلك الهاوية التى
لا يبدو قرارها . . . ووا خجلة مصر !! من الذى يصنع ذلك فيها ؟؟
شعراؤها - الشعراء في كل مصر عشاق المثل الأعلى وطلاب الكمال
الاسمى لا يرضون بما دون غاية الفسيات مطمحا لعجابهم
وقبله لتزكيتهم . ونحن هنا يزكى شعراؤنا من يعدرفق اسجانيين
بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزدا
. . . الا انه والله للعسار وشر من العار . ولقد استخف شوقى
بجمهوره واستخف واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه أن يسخر
الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه واختلاس ثقتيه حتى
يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيده اجرة
سوقه واختلاسه . واقسم لو فعلها رجل في أوربا لما قدر ان يمكث
بعدها أسبوعا واحدا في بيئة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مفتتها
أدبا ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ليكونن بلدنا هذا يجوز فيه كل شيء ولا يؤنف فيه من شيء ،
ولا يصد المرء أن يخلع فيه هاريا الا انقضاء طوارئ الجو وعوارض
الحر والبرد . اما الحياء فلا ولا كرامة .

ان امرءا تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى
مم يستنكف في سبيل بغيته واى باب لا بطرقه تقربا الى طلبته .
والحقيقة ان تهالك شوقى على الطنطنة الجرفاء قديم عريق ورد به
كل مورد واذله عما ليس يذهل عنه بصير اريب ، وليس المجال
منفسحا للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر
هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . اما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم .
نقول ان تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد في مركز
امكنه من قضاء هذه الببابة اذ كان اشبه بملحق ادبى في بلاط امير
مصر السابق وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه باصحاب المؤيد واللواء
والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل
عليه بالتقريظ والتهليل وتنحاشى ان توسع صفحاتها لنقده كما
توسعها لنقد غيره . وانت اذا قلبت الصحف القديمة رايت فيها
مئات المقالات في نقد الادباء المشهورين كتابا كانوا او شعراء ولا ترى
اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حملاتها . واستثنى مقالتين او ثلاثا
بدا بها المويلحى نقده في صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ،
وهذا ادى الى الريبة ، وكان في امانة شوقى وموظفين آخرين
بالبلاط هيات محبوسة على اقلام الكتاب والادباء فكان شوقى
يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالادب
ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه في الصحف ويلفظوا في
المجالس بتفضيله وتقديمه . ولو شئنا لسردنا اسماءهم واحدا
واحدا واكثرهم احياء يرزقون . أضف الى هؤلاء من يمدحونه
لمشاركتهم اياه في العادات الخصوصية والمناذات الليلية ، وهم غير
قليل ، ومن اعتسأدوا ان يرتبوا المواهب على حسب الوظائف
والالقب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشعراء فيقول لك :
اولهم محمود سامى باشا البسارودى (لانه باشا عتيق) وثانيهم
اسماعيل صبرى باشا (لانه احدث عهدا بالباشوية والوزارة)
وثالثهم احمد شوقى بك (لانه بك متمايز) ورابعهم حافظ بك

أبراهيم (لأنه أحرز الرتبة أخيراً) وبنى ذلك خليل أفندي مطران
(لأنه حامل نيشان) فطائفة الأفندية والمشايع وهلم جرا كأنما
يرثيونه في ديوان التشريفات لا في ديوان الآداب !!! فبذلك وما
شاكله اعتاد الناس أن يسمعوا اسم شوقي مشغوعاً بأفخم الألقاب
فارقاً في صيغ الأطناب والاعجاب . وكأنه يخشى أن ينسى الجمهور
اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه إلا أن تكرر تلك الصيغ في كل
مرة يذكر فيها اسمه . ففي كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب
وشاعر العرب والعجم وأمير الشعراء وسيد الأدباء ، وليت شعري
ما ضرورة هذا التكرار كله إن كان مفهوماً بذاته ؟! ولما رسمت
هذه الألقاب المأجورة صدقها العامة واشتباها العامة ومن يجاملون
السمعة والوجاهة فتناقلوها ورددوها... ولم لا يصدقونها ويرددونها
وأكثرهم لا معنى من الأدب بكثير ولا قليل ، وجلهم إنما يعرفه
بالسماع ويلقنه بالاشاعة ؟! فإن كان في الأمر موضع للعجب فهو
أن نسمع ثناء متكرراً ولا نسمع نقداً - مع أن الأفرار في الثناء
أحجب أن يفوى بالمنافسة ويكثر من النقاد . ومتى علمت صلة
السكوت فقد زال موضع العجب .

واظن السن قد فعلت فعلها في نفس هذا المذهب بمرض الصيت
فغلبه الشك وزاده شحاً وقلقا فأصبح لا يقنعه أن يعطى بالدهان ،
ويؤكد له التفرد والرجحان ، حتى يرتج أبواب المدح ومناقضه على
الخلق قاطبة ، فلا يروى لأحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى
باسم ، ولا تقرر إلى شهرته شهرة . والا فعقوبة من يرتكب جريمة
الاجادة معروفة !! وما أطول مذابه إن لج به هذا الوسواس !! وإن
الحنّة لتستدر الرحمة ولكن أرحم الناس خليق أن يضحك ممن
يخال أنه يعقم بطن الطبيعة ويسد الأذان ويضيق رحب القضاء
بالأجرة .

ولو شئنا لأنخلدنا من كلف شوقي بتواتر المدح دليلاً على جهله
بأطوار النفوس فإن الأذان أشد ما تكون استعداداً لقبول الدم إذا

شجعت من المدح وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النعمة . واذا تعود الناس ان يسمعوا ضربا واحدا من الكلام من اسنان تاقوا الى سماع كلام منه من ضرب آخر . ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة واكبر ذنبه عندها انها افترطت في محاباته ، فهل يدري شوقي انه يؤجر اذنا به على النيل منه حين يبذل الاجر على المبالغة في مدحه ؟ انه لا يدري ولا يبرىء المريض ان يدري بدائه .

وعلى نفسها جنت براقش ، فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقي ومن على شاكلته عجز حياتهم ووهن اسلحتهم ونضطرهم الى العدول عن اساليبهم المستهجنة ياسا من صلاحها في هذه الايام . اذ يعلمون انها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموه على الناس اقدارهم الا ريشما تنكشف اسرارهم . ونقول لشوقي ان سنة الله لم تجر بان يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجرى بان يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكره ان يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفى الا بان يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا أبرد عليها وغرة قيفلها . وانه ليلد لنا ان تكون نحن حربه وبلاءه وان نستطيع الادالة للحق من الباطل في غرض من الاغراض فانها لذة نادرة في هذا العالم .

وانه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فان ابلغ ما يكون الميب اذا كان فاشيا ، واضر ما يكون اذا كان متخذاً نموذجاً للاحسان وقياساً للاتقان . وليس قصارى الامر ان يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن انها قصيدة رديئة فان اللوق والتميز اذا اختلا لم يكن اختلالهما في الادب وحده . وانت اذا استطعت ان تهدي الطبقة المتأدبة من امة الى القياس الصحيح في تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح في كل شيء ومنحتهم ما لا مزيد لما تح عليه . وان الامم تختلف ما تختلف في

الرقى والصلاحية ثم يرجع اختلافها اجمعه الى فرق واحد : هو الفرق في الحالة النفسية أو بالحرى الفرق في الشعور وفي صحة تمييز صميمه من زيفه اذا عرض عليها فكرا وقولا أو صناعة وعملا . فليس اصلاح نماذج الآداب بالأمر المحسود أو القاصر على القشور ولكنه من أعم أنواع الإصلاح وأعمقها . وسنتناول شعر شوقي قصيدة قصيدة أو معنى معنى حتى نتبين الأثر جليا في تحول الآراء وسلامة القياس ، وسرى للقراء أننا نلفظ له البلاغ ونصحه صخا شديدا . وكذلك ينبغي أن يجزى الزيف والدسيسة والاستخفاف بالمقول والاستطالة على الناس بالمقسدة على كم الأفواه وتسخير المأجورين . على أننا لا نحتاج أن نقول أن ذلك ليس بما نعنا اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفي غنى نحن عن الاحتياال باللين والمداواة على القارىء ليقتنع بما نقول فأننا لا نسأل احدا اقتناعه . ومن كان يحتكم براه الى غير الحجة إلقاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا أن نوجه لمثله كلاما . وأنا لبادئون : -

رثاء فريد

أصاب شوقي حين قال ان قصيدته في رثاء فريد من خيرة قصائده . فانها في مستوى احسن شعره الاول والاخير ، وهي صورة جامعة لاسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لهدف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجرا في بناء شهرته ، لانها من نوع ذلك الشعر الذي كان يشتهر به الشاعر في تلك الفترة ، وفيها مزايه ومحاسنه التي لم يكن للشعر مزايا ومحاسن غيرها . فقد كان العهد الماضي عهد ركافة في الاسلوب وتعرش في الصياغة تنبوه الاذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق الى جملة مستوية النسق أو بيت سائق الجرس فيسير مسير الامثال وتستعذب به الافواه لسهولة مجراه على اللسان . وكان سبك الحروف ورصف الكلمات ومرونة اللفظ اصعب ما يعانيه ادباء ذلك العهد لندره الأساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة . فاذا قيل ان هذه القصيدة يتلوها القارئ « كالماء الجاري » فقد مدحت احسن مدح وبلغت الغاية . واذا اشتهر شاعر بالاجادة فليس للاجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوي الحلو » وهذه هي قدرة شوقي التي مارسها واحتال عليها بطول المران والتي هي مزية قصيدته في رثاء فريد وفي احسن قصائده .

مضى الجيل الفاتت وجاء جيل بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة والرسائل الرصينة واخرجت المطابع مئات الكتب التي

صاغها اقدر كتاب العرب وشعرانهم وانتشرت الصحف فاصبح من
مالوفات العامة ترديد جملها « النحوية الحلوة » وترجمت الاسفار
الافرنجية او اطلع عليها الناشئة في لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ
ومعنى الاقتدار الفنى او الادبى . وسهلت الاساليب لكثرة ما وردت
على الاسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارىء
ان يبحث عن المعنى بل لا يكفى القارىء المطلع ان يجسد المعنى حتى
يبحث عن وجهته ومحصله . فمزية شوقى عند هذا الجيل الناشئ
من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لنبعث عما
وراءها .

ولهذا طفق يلتقى اليهم القصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لها رنة
ذلك الصدى ، وطفق اذكاء القراء يمرون بشعره الآخر قصيدة في
ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره ، اغترارا بما كانوا سمعوه من الصيت
الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : « ماذا اصاب شوقى » ؟
ويغالط قراؤه الاقدمون انفسهم فيخيل اليهم انهم كانوا يسمعون
منه خيرا من هذا الشعر ، وقد يعززون الاختلاف الى كلال التسيخوخة
وفتور المزاج ولو كلفوا انفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون
به على الذكرى ، وحديثه الذى يفصيون انفسهم على استحسانه فلا
يقدرّون — لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا ان شوقى الامس هو شوقى
اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلسة القراء فاصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق
الرضى قبل ثلاثين او عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب
في ذلك ولا في بقائهم على احلال شوقى محله الاول مع انحذار شعره
في نظرهم . فانهم يرون منزلة شوقى بالعصاة التى لم تتغير منذ
قدروه للمرة الاولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذى نما
وترقى واتسع اطلاعه . وقد جمّد شوقى في مكانه لانه جعل اطراء
الناس غايته فلما بلغها لم يحس في نفسه نشاطا للنمو . ثم لا تنس
ان القارىء يرتقى في الاختيار اضعاف ما يرتقى الشاعر في الاداء
والابتكار . وقلما يرتقى الشاعر بعد الاربعين فان اخصب ايام

الشعر أيام الشباب . وإذا ارتقى فانما يكون ذلك باحثاث الطبع
وإدمان الاطلاع والتزيد من المعرفة وشوقى لم يجد من نفسه ولا من
الناس داعيا الى ابتغاء المزيد وقد علم أصحابه ان زاده من القراءة
لا يتعدى كتب القصص والنوادر .

وقد أحس شوقى بالتغير من حوله فأده ان يستدركه وأعيته
الزيادة في سن التقهر فعوضها بزيادة الطنطنة كما يزداد ترويح
السلعة كلما خيف عليها الكساد . ولما سئل عن غرضه من قصيدته
في فريد وقرىء له في نقدها مالا يحب بهت على ما سمعت وقال :
تلك قصيدة أردت بها الكلام في فلسفة الموت ...

فلننظر اذن فلسفة الموت التي استنبطتها حكمة شوقى :

تعود ايها القارىء الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم
تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين الا كل ما هو أخس من بضاعتهم
وأبحس من فلسفتهم - كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان
والمكاكيز اذ ينادون في الأزقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ،
الذي عند الله باقى ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئا
التقاء » الخ ... الخ .

تلك اقوال الشحاذين وهذه اقوال (امير) الشعراء .

كل حى على النيسة غساد	تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الاولون قرنا فقرنا	لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم	غير باقى مسائر وابادى
الخ ... الخ .	

وما خلا هذه المعطيات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار
بوترع فيه الى الاستقلال بالرأى فمعناه أخط من ذلك معدنا وأقل
طائلا وأفشل مضمونا . والجيد منه لا يعدو أن يكون من حقائق
التمرينات الابتدائية « كالزيب من العنب و $2 + 2 = 4$ » وهلم
جرا . وأكثره اتفه من هذه الطبقة فالقصيدة اما بيت حذفه وإثباته

سواء أو بيت حذفه افضل ، مثل اخباره بأن جر النمش في مركبة
أو حمله على الرقاب سواء .

لا وراء الجياد زينت جلالا منذ كانت ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذى ما احسب احدا يمر بقبر
فيذكره الا انقلب الاعتبار والهبة في نفسه هزوا وعبثا . وذلك
حيث يقول :

كل قبر من جانب القفر يبدو علم الحق أو منار المساد

وعلى هذا يكون تعريف القبر في جغرافية شوقي الاخرية :
« انه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتى الى طريق
الآخرة لئلا يضل احدهم النهج أو يصطدم بصخرة في دروب
الموت !! » ومثل تحذيره الناس من تربص الأجل بهم ايقاظا وتياما
كانما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهودة .

وعلى نائم وسهران فيها اجل لا ينسام بالمرصاد

ومثل تبئيسه من رجعة الموت الى اهله وتخطئته الذين يزعمون
غير هذا الزعم يقول ذلك بلهجة العارف لما يجهله غيره كأنها مسألة
خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها احزاب الفلسفة ولم يفرغ
الناس يوما من بحثها وتقليب وجوها والتنقيب عن اسانيدها
وشواهدا حتى جاء شوقي ففض الخلاف ببتيه هدين .

سر مع العمر حيث شئت تؤين

وافقد العمر لا تؤب من رقاد

ذلك الحق لا الذى زعموه

في قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان اهل الميت اذا مات في برلين أو لندن أو الهند
لا يزالون بترجون يوم اوبته ، ويعدون أيام غربته ، وكان العلماء في

كل قطر وبلد يتساءلون امن مات قريباً عن دياره يؤب الى اهله
يوما تاضر الصفحة متהל الجيين ممتعا بالمانية او لا يؤب ؟؟ فكان
فريق منهم يقول « نعم » وفريق يقول « بل لا » الى ان جاء شوقي
فأفتى فتواه الجازمة وقال « بل لا يؤب » فانحسم الاشكال وقطعت
جهيزة كل خطيب :

قال ناقد ادب : ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه
قائل المثل العامي « اعطني عمرا وارمنى في البحر » وانه كان اسوأ
منه تعبيرا واقل ظرفا اذ يخاطب القارئ بقوله « أفقد العمر » وذلك
العامي يتلطف ان يجبه الناس بهذا الخطاب وتقول : ان توارد
الخواطر معروف مسلم به من جهة ، ومن جهة اخرى فان من
يتجشم لاجل الانسانية ان يفوس على هذه المسائل العويصة ويسهر
الليالي في فض مفلقاتها وحل مشكلاتها لتحقيق بان يتجاوز له الناس
عن حسن المخاطبة ولا يكلفوه ان يابه لثل هذه الهنات !!

ولنعد الى ما كنا فيه من ثقل أبيات شوقي التي لم يرد في
فلسفة الشحاذين مثلها — فمن هذه الايات نبا عجيب فحواه ان في
العالمين نعشا واحدا تنقلهم اعراده من عهد عاد .

تستريح المولى يوما وهذى تنقل العالمين من عهد عاد

فان لم يكن يعنى هذا ويرغم ان الامم لا تملك منذ وجدت غير
نعش واحد تنقل عليه موتاهما فسبحان من يعلم مراده . والا فان
كان يعنى ان هذه الخشبة التي ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى
وتجدد فأي شيء لا يمكن ان يقال فيه ذلك ؟؟ اية مطيعة لا تنقل
العالمين من عهد عاد كما ينقلهم النعش ، وما بال اى انسان لا يقول
اليوم او بعد مائة جيل انه ركب مركبة فرعون ونام على سرير
قيصر ؟؟ ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجانا وطوت من ملاعب وجياد
شاعر عصرى ولا شك !! الا تراه يدين بكروية الأرض ؟؟ ولكننا

نخشى أن لا يكون شوقى قد ذكر الكرة الا ليذكر بعدها الصولجان
والملاعب والجساد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منه ،
فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟ ان الحقائق الخالدة لا تتعلق
بلغز أو لغة لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عريتها
وأعجميتها . وانت اذا نقلت هذا البيت الى اية لغة لم يكن معناه الا
هكذا : « هذه الفبراء اسقطت من ايدى الملوك قضا كثره ودثرت
ميادين لا عداد لها من ميادين السباق ، وابدت خيلا لا تحصى » -
فما اشته الحكماء بالمفرورين ان كانت ثروة كهذه تقع من نفس احد
موقع الحقيقة الخالدة .

ويقول :

تطلع الشمس حيث تطلع صباحا
وتنحى لمنجسل حصصا
تلك حمراء فى السماء وهذا
اعوج النصل من مراس الجسلاد

اليوم لا نخشى بفتة الاجل فى كل حين !! فالشمس لا تخرج بدم
قتلاها الا حيث تطلع صباحا (أى حين تطلع حمراء وفى السماء . اما
ان طلعت فى الارض فهذا شئ آخر) والقمر لا يكون منجلا حصصا
الا فى ايام الالهة أو المحاق وفيما عدا هذه الاوقات لا قتل ولا حصا
فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربى فلا
تصدقوه فان موته باطل ...

الا ان شعرا يسف الى هذا المحال لجريرة لم يجننها على لغة
العرب الا زغل الصناعة لا جزى الله صانعيها خيرا . جعلوا التشبيه
قاية فصرفوا اليه همهم ولم يتوصلوا به الى جلاء معنى أو تقريب
صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم ان يلصق بالشبه كل صفات
المشبه به كان الاشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكان الناس فقدوا
قدرة الاحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو اعوج

موقوف فطلبوا له شيها ، وهو اغنى المنظورات عن الوصف الحسى ،
لأنه ان يهرب يوما فنقتفى اثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه
وان كان لابد من التشبيه فلنشبه ما يبثه فى نفوسنا من حنين أو
وحشة أو سكون أو ذكرى ، ففى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف
النفوس باختلاف المواقف والخواطر . طلبوا ذلك الشبه فقال قوم
هو كالخلخال ثم راوا ان لابد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق
زنجية الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشيخوا
بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الأرواح . واقتن قوم فقالوا هو
كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز .

انظر الى حسن هلال بدا
يهتك من انواره الحنينا
كمنجل قد صيغ من فضة
يحصد من زهر الدجا نرجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم
نرجس ، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟ هل
فى هذر . وجاء شوقي فقال انه منجل يحصد الأعمار فأخطأ حتى
التشبيه الحسى لأن الأعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل
فحسب ، وأما فى سائر الأيام فلا يكون القمر منجلا فى شكل ولا فى
حقيقة . فما المراد بكلامه ؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الأرض :

والفبار الذى على صفحتها دوران الرحي على الأجساد

وذلك من قول ابن المعتامية :

الناس فى غفلاتهم ورحى المنية تطحن

مثل لفناء الأعمار بالطحن ولا بأس بهذا التمثيل ، واقتضى
للطحن رحي وجعل المنية الطاحنة قبله حدا لا يحتمل بعده
الاستطراد ، فعر على شوقي الا ان يكون لهذا الطحين غبار وان

يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحي . عند
هذا يركد المقل ويجم الكلام .
ولم أفهم البيتين الآتين بعد قوله : « تلك حمراء في السماء
.. الخ »

**ليت شمري تعتمدنا وأصرا
أم اعاننا جنسية الميلاد ؟
كذب الأزهران ما الأمبر الا
قدر رائج بما شاء غدا**

يعنى الشمس والقمر . فما تعتمد والاصرار وما اعانة جنسية
الميلاد وما الفرق بينهما ؟؟ اريد أن يطبق على الأزهرين المسادة
القانونية : مادة القتل من تعتمد وسبق اصرار ؟؟ وقيم كذبا وكيف
يكون جريان الشمس والقمر في حيث أرسلتهما القدرة المحركة لهما
للقدر الرائج الغادى ؟؟ وهل تعتمد والاصرار واعانة الميلاد الا رواج
القدر وشدوه بما يشاء ؟؟ اسئلة لا جواب عليها ولا لوم في ذلك على
شاعر الانس والجن فلعل هذه من آيائه التى صنعها لاختواننا الجن
واختصم بها دوننا .

ويقول في نعش فريد او حقيبة الموت كما سماه :

لو تركتم لها الزمام لجاءت

وحدها بالشهيد دار الرشاد

أما دار الرشاد فهي مصر كما أرادت القافية لا كما أراد شوقي
ولا كما أراد التاريخ والآخر . وأما معنى البيت فيقول شوقي ان
نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر لسمى وحده الى مصر !!
فله ما أقدر رائي الشعوس على احالة الجليل مضحكا والتقديس
زرابة : نعش يسمى وحده في البرور والبحار ويجوس خلال المدائن
والديار ، يستدل وينعطف ، ويمضى ويقف ، حتى يستقر ملهما عند
قبره ، جادا لا يلوى على شيء قبل بلوغه ، والنسباس متنحنون عن

طريقه ، تاركينه يتهدى لطيته . . افمن هذه الصور ينتزع الشاعر
مادة الرثاء والاجلال ؟؟ الا ساء ما اصاب ذكرى الرجل من اجلال
شوقى . اراد ان يقول كما قال البيهقي :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما

في وسعه لسمى اليك المنبر

فكبا كبرة حاطمة .

ولقد طمع شوقى الى معارضة المعري في قصيدة من غرر شعره
لم ينظم مثلها في لغة العرب ولا تذكر اننا اطلعنا في شعر العرب على
خير منها في موضوعها . والمعري رجل تنعم هذه الحياة محرابا
واجتواها غابا وصدف عنها سرايا - لابس منها خفيا اسرارها ،
واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع فواير آثارها ، وحواضر أطوارها ،
فاذا هو نظم في فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله
وتلك سبيله . واين شوقى من هذا المقام ؟؟ انه رجل ارفع ما انفق
له من فرح الحياة لمدة يباشرها أو تباشره وأعمق ما هبط الى نفسه
من آلامها اعراضة أمير أو كبير ، وما يمثل هذا ينظم الشاعر في
فلسفة الموت والحياة .

ولكى لا يسبق الى وهم شوقى اننا تكبر قصيدة المعري تعصبا
للقديم وابشارا للعرب على العجم بلقى اليه ها هنا درسا في الشعر
قد ينفعه .

فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، ان الشاعر من يشعر بجوهر
الاشياء لا من يعددها ويحصى اشكالها والوانها . وان ليست مزية
الشاعر ان يقول لك عن الشيء ماذا يشبهه وانما مزيتيه ان يقول
ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من
القصيد ان يتسابقوا في اشواط البصر والسمع وانما همهم ان
يتعاطفوا ويودع احسهم واطبعهم في نفس اخوانه زبدة ما رآه
وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه . واذا كان كذلك من التشبيه
ان تذكر شيئا احمر ثم تذكر شيئين أو اشياء مثله في الاحمرار فما

رُدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شيء واحد ،
ولكن التشبيه أن تطيع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما
انطبع في ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان
فإن الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما
تراها وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى
نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى
صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه
مطربا مؤثرا وكانت النفوس توافقه إلى سماعه واستيعابه لأنه يزيد
الحياة حياة كما تزيد المرأة النور نورا . فالمرأة تعكس على البصر
ما يشي عليها من الشجاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على
الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجودا إن صح هذا التعبير ،
ويزيد الوجدان احساسا بوجوده . وصفوة القول أن المحك الذي
لا يخطيء في نقد الشعر هو الرجاء إلى مصدره : فإن كان لا يرجع
إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن
كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود إليه المحسوسات
كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر فذلك
شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية . وهناك ما هو أحقر من
شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائفة
وما أخال غيره كلاما لشرف منه بكم الحيوان الأعجم .

فإن تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعرى
التي اجترأت على معارضتها .

نظر المعرى إلى سر الموت فلم يره في مظهره الضيق القريب ،
حادثا متكررا تختتم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة
العميقة . رآه كما بدا منذ القدم لبداية الحكماء وأصحاب الأديان ،
وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس وماني : حربا سرمديّة قائمة
بين قوتين خفيتين ميدانها كل نفس حية وكل ذرة في طباق
الأرضين وأجواز السماوات — هاتان القوتان هما الخير والشر أو

هما النور والظلام أو هما الحق والباطل أو هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تفعل ، وأعداء لا تنسى تقبل وتدبر ولا تتمهل . والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغدا ، ولتشهدنها الى ختام الزمان أن كان للزمان ختام .

نظر المعري الى العالم الأرضي فلم يكن سرير محتضر ما رأى ، ولا نجبا مقضيا ما أحس ودعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائما في كل كيان قائم ، متقادما في كل ركن متقادما :

كل بيت للهدم ما تبتنى الور

قاء والسيد الرفيع العماد

وعلم أن القوتين اللتين هذا أثر نضالهما في الأرض فاعلтан هذا الفعل لا محالة في أشرف كواكب السماء واسماها ، واضوا عوالم النور واذكاهما .

رحل أشرف السكواكب دارا

من لقاء الردى على ميماد

ولثار المربخ من حدثان الدهر

مظف وإن عسلت في انقصاد

والثريا رهينة بافتراق الشمل

حتى تصد في الأفسراد

لا بل رأى الكون (١) والفساد متصاحبين متلاحقين في كل حال .

واللييب اللييب من ليس

يفتر يكون مصيره للفساد

(١) الكون هنا وفي البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى المالح

وكانت العبرة التي استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف
على مشهد من ذلك النضال الترمد ، فوق افراح الانسان واحزانه ،
ولو نطق الأبد لما تكلم بغير قوله :

غير مجد في ملتي واعتقادي

نسوح بأك ولا تسرنم شساد

وشبيه صوت النعى اذا قيس

بصوت البشيسير في كل نساد

واذا ذكر متاعب الحياة فكانما يذكرها ليصرفها عنه بنظره
القائط المستخف فيقول :

تعب كلها الحياة فما اعجب

الا من واغب في ازديساد

ان حزنا في ساعة الموت اضعاغ

سرور في ساعة الميسلاد

اسف غير نافع واجتهاد

لا يؤدي الى غناء واجتهاد

كذلك كان احساس المعري بسر الموت ، وهو اوسع احساس
قدر لبشرى ان يحسه من ذلك السر الرهيب .

اما انت فقد نظرت فماذا رايت ؟؟ لعلك ادري بما تنظر وترى
ولكننا نقول لك ما لست تدريه . انك لم تر شيئا يحتاج الناظر في
رؤيته الى غير الحواس - انك تقول « لم يدم حاضرا ولم يبق باد »
حيث يسوى المعري بين وكر الورقاء ومعامل العظماء وبين منازل
الأرض ودارات السماء . اردت ان تعمم كما عمو ففانك مغزى
تعميمه وجئت بكلام لا لباب له ولا ترضى تشوره ، اذ ما علمنا بين
الحضر والبدو من فرق في التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما
في حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادي لان
احدهما قد يسمع ما ليس يسمعه الآخر لتباعد الدار او انقطاع

الأخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر والبادي لمثل هذا السبب .
وأما قولك يموت من في الحاضرة والبادية فكذلك الناس اسما اسما .
وقولك عن كل واحد انه يموت ، وعلى انه لو صح ان يقال هذا فأي
فضل فيه لغير الحواس وأي دليل فيه على اللب الحكيم والطبع
القيوم ؟؟ وتقول في القبر انه منار المعاد .

وزمام الركاب من كل فج
ومحيط الرحال من كل واد
وهل بين واد وواد فرق في هذا الحكم ؟؟ وتقول :
وعلى نائم وسهران منها
قدر لا ينسام بالمرصاد
وهذا كذاك بل أضعف أما قولك .

ليس ساقه الردي والنظن
النسر من سهمه على ميعاد
فما أحسبك تدعى فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة .
وإذا تجاوزنا هذا الباب الى غيره وعمدنا الى مقارنة الأبيات
المتشابهة في القصيدتين الفيناك تخطيء في كل بيت تسرقه من المعري
أو تأتي بالبهرج من حيث أتى هو بالذهب .
المعري يقول :

رب لحد قد صار لحد مرارا
صاحك من تراحم الاضداد
ودفين على بقايا دفين
في طويل الأزمان والأبداد
وليس أجل ولا اصدق من هذا الشعر . وأن تعبيره عن تعاقب
الدفن بعد الدفن في الموضع الواحد بتراحم الاضداد وقوله ان

اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ما ينطق به اللسان في وصف تهكم الموت بالأحياء وعبت التزاحم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك أن تحاكي هذه المعجزة البيانة بقولك .

هل ترى التراب احسن عدلا
وقيسا ما على حقوق العباد
نزل الاقرباء فيه على
الضعفى وحل الملوك بالزهاد
صفحات نقيصة كقلوب
الرسل مفسولة من الاحقاد

التراب ينصف العباد ويصون حقوقهم احسن صيانة لانه يبيدهم جميعا !! فبحقك يا هذا كيف يكون تضيق الحقوق !! وما الذى لقيه اضعف العباد من اقوامهم وظلمهم اشد من هذا الانصاف والصيانة !! ويخيل اليك أنك ابدعت حين قلت أن الملوك يستضيفون الزهاد في التراب ، وهذا من فضائل الموت !! ، فهل تعنى أن الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء !! فان كنت لا تعنى ذلك فقد قلت ما تعلم انه خطأ وقتله لغير غرض . اما المعرى فقد احاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئا من الصدق او بلاغة الاسلوب حين قال :

وعزير على خلط الليالى
وم الغاصمكم برم الهوادى

وهذه هي البلاغة الجادة التى لا لعب فيها .
وعندك أن طهارة القلب هي موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقيًا مفسولا كقلوب الرسل . أفليس من موت القلب أن لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب !!
يقول المعرى :

خفف الوطء ما اظن اديم
الأرض الا من هذه الأجساد

وانت تقول :

والفيسار الذى على صفحتها
دوران الرحي على الأجساد

المعري يسأل :

ابكت تلكم الحمامة ام غنت
على فرع غصنها الميساد

وانت تأبى ان لا تكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكي فتقول :

ضاق عن تكلها اليكى فتفتنت
وب تكل سمعته من شساد

ثم يروك وانت تبسارى المعري مبالاة المضحكين ان ترمم
لناجيتك ولنفسك انك نظمت فى فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة فى
آية من آياته !!

على انك قد تعذر بعض العذر فى قصورك من هذه الناحية لانك
مجبور فيه لا مخير . اما الامر الذى لا نعلم لك منه علما فان ترثى
رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا سيرته الا عرضا ، وان
لا يخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من ضمار الناس . ولو كان
ذاك لضيق فى مضطرب القول او لنقص فى بواعث الأسى على الرجل
لما خفى تعليله ولكنك تعلم كما نعلم ان مصر الحديثة لم تنجب من
دعاتها رجلا لقى فى حياته وموته مما يستثير دقائق الحزن ويطيل
مدد الرثاء بعض ما لقيم فريد . فتهاونك فى قضاء حقه وتوفية
قدره لا يكون الا لعجز او كنود . فان لم يكن هذا ولا ذاك فلاحنة
لا تزال تغلى فى نفسك على الرجل بعد موته . وانت بأسبابها اعلم .

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق ان يقصد المرء المدح فيقذع في الهجاء ، أو
ينوى الدم فيأبى بما ليس يفهم منه غير التشبث . واشد من ذلك
أيضاً في سقم الذوق وتغلغلاً في رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث
أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو في موقف التأبين والرثاء
والعبرة بالفناء .

ولست أدري أى ما جن من نظاميننا قال هذا البيت في رثاء
أحدى العيان :

رحمة السود والكمنجيا عليها وصلاة المزممار والقسانون

ولكن لا ريب ان قائله ، مهما سمج منه الهذر في مثل هذا
الموقف ، أو عيب عليه سوء الظن بفن الفناء واقدار ذويه - أسلم
ذوقاً في بيته هذا من شوقي في رثائه لعثمان غالب . لأنه تعمس
الهزل فقال له وما كان شوقي كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل
هذا الهراء .

فصحت مصرع غالب	في الأرض (ملكة النبات)
أصت (بتيجان) علي	من الحداد منكسات
قامت على (ساق) لغي	بته واقعت الجهات !!!
في ماتم تلقى الطيب	عة فيه بين النائحات
وترى (نجوم الأرض) من	جزع موائد كاسفات

والزهر في أكمامه يبكي بدمع الفساديات
حبست أقاحي السربي والعهد فيها مومضات !!
وشقائق النعمان أ بت بالخسود مخمشات

بل تما لا مرأ فيه ان صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء
وبر بوعده لنفسه واعتبط بما دب عليه من المعاني الدقيقة والنكات
الانيقة ... لانه استطاع ان يذكر الزهر بمناسبة ولو في غير
موضعها ، ولعمري كيف يكون شاعرا من لا يذكر الزهر او الثمر
كما يذكر العابد الله والعاشق ليلاه . بذكرهما في غضبه ورضاه ،
وفي لهوه وبلواه ، وفي فرحه وبكاه ، وفي غيظه وهواه ، وفي يقظته
وكرهه ... ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل
المدينة الاهلة ، وحين يروي عن النعمة السابغة او يتحدث بالمصيبة
القائلة والمنية العاجلة . وكيف يكون مطبوعا على الفن ، مدلها
بفتن الجمال من اذا وصف الجثة الحائلة ، لم يقل انها صفراء
كالاقحوانة ، او المتميز من الحق لم يحسب انه يتفلق كما تنفلق
الرمانة ، او المتدلى من المشقة لم ير انه يهتز اهتزاز البانة ، او
قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة !! وشوقي لم
يوق هذا الغرض فحسب بل ارانا ان الازهار لا تجرى على سنن
الجمالة في النواح ، فعل النساء ، وانما تحزن على من هي غرس
يده وجنى معرفته ونبت نعمته ورعايته . قلو فجعت البلاد مثلا
بموت عالم من علماء المعادن لما سمع لزهرة واحدة ان تدبل دمة
اسفا لفرقة وانما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والدوق المليح
فكان يجعل اسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جمودا
لهول المصيبة فيه . وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمران
النحاس احتقانا ، ولين القصدير ذوابانا ، الى آخر ما هنالك من
ألوان العذاب التي تلم بالمعادن الصلاب - ولو كانت النكبة في عالم
« جيولوجي » لما قال شيئا من ذلك بل كان يقول (مثلا) ان
الطبقة الرملية في ناحية كذا تجثو التراب على راسها فرعا ورعا ،

وأن الطبقة الجبرية في موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وأن هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الأرض أو تزلزل بها الكمد وناهيك ما كان يقوله لو نفذ القضاء في شاعر جليل فانه أبقاه الله لن يقنع بأقل من الحاق الزحاف والأقواء والخبن والسناد وسائر علل العروض والقافية بكل قصيدة قيلت أو تقال من يوم خلق الله الشعر الى يوم يبعثه من القبر الذي الحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون ، وأى تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر الندابة في سهيل الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعواء الكلاب ونقيق الضفادح لو كان العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة الكلام ؟! هذا ما نسأل الله اللطيف فيه فاننا ان احتملنا حداد الألوان والاشكال قلن نطبق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن وا أسفاه !! لا بد من التضحية ، لا بد من فقدان والخسارة في هذه الدنيا الفانية !! وليس من السهل أن يقول الإنسان أن الأشجار قامت على « ساق » واقعدت الجهات الست التي ما برحت قاعدة في مكانها منذ الأزل ، ولا من الهين أن يحشر الطبيعة « لا أكثر » في ماتم تكون فيه إحدى النائحات « فقط » ولا من اللعب أن يصل في كل ساعة الى أبكاء الرياحين والأزهار والمعادن والأحجار - ولا سيما النفسية منها - كلا ليس ذلك بالقول الهزل ولا بالمركب السهل ، ولكن يقول الرجل الفنان منا هذا القول ويهبط الى قرار هذه المعاني العميقة ، لا غنى له عن التضحية بالدوق السليم والوصف الصادق والتخيل الصحيح والشعر الجدى والشعور القوى ، وهذه كلها ضحى بها شوقي على مذبح فنه فما ثأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهه امتعاضة حزن أو مسحة أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقي ولا مبالة . . . نقول ولكنه مع ذلك كان سخيفا غشا ضعيف الملكة مشنوء السليقة . . . ونقول هذا صحيح ولكنه قال ما أراد أن يقول وتفنن وروى . أجل !! انه لم يوث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذي يرثيه أولئك السلدح اللهاء ، الذين يحسبون ان الإخصائيين اذا ماتوا فيجفوا احدا غير المواد التي

تفرغوا للدرسها وتوفرُوا على البحث فيها ، والذين إذا أودى أحد
اولئك الاخصائيين اسفوا ووصفوا اسفهم هم عليه (مباشرة) ولم
يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب
السحاب تارة اخرى ، او يكلوها الى الطبيعة كلها بارضها وسمائها
وامواتها واحيائها ويجعلوا النفس الانسانية او نفس المصاب بالبلية ،
آخر من يحس في هذا الكون بفقد عزيز !!

ولقد كنا نود ان نقف عند هذا الحد في الابانة عن براعة شوقي
وافتنانه ، والاشادة بخلايقه وبيانه . لولا اننا آثرنا ان لا يفوتنا
سؤاله عن انواع من النباتات لم يسمها في تلك المناحة التي اقامها -
ماذا كان من شأن القطن باصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل
ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والتفشاء في ذلك الملم المميم
الذي كانت الطبيعة فيه احدى الناحيات « فقط » !! انه سكنت عن
هذه الانواع وغيرها فهل ذاك لانها لم تكن من اتباع النبأ الكبير ام
لان من خواص تلك الانواع التي يعلمها الشعراء ويجهلها النباتيون
انها مضیعة للعهد ناكرة للجميل !! ام لعلها لا تنتمى الى عالم النبات
وان ردها الناس اليه ، كالرجان بحسبه قوم نباتا وبحسبه آخرون
جمانا وهو من عالم الحيوان !! ام هو الصلق في الخير والامانة في
التبليغ اوحيا اليه ما قال فلذكر فريقا وسكت عن فريق : راي
الرجل الاقاحي باهنة ذابلة على غير عهدا وابصر شقائق النعمان
تخمش خدودها فابرا ذمته وادى اماتته ، ولم ير القطن ولا القمح
ولا سواهما يصنع شيئا فربا بشمره من شهادة الزور والتخرم
وسجل عليها ما سجل من جمود الطبسائع وقسوة القلوب !! تلك
اسئلة ما كنا نسألها لولا اهميتها وخطورتها ولولا اننا تعلمنا منذ
الآن ان نرقب اعين كل جامد ونايت وحى ، حاشا الانسان ، تعرفنا
لجلال الانباء واستطلاعنا لخفايا الحوادث قبل ان تبض بها اوتار
البرق ويظهر بها التجابون ، ولو اننا عرفنا ماذا ينبغي ان تحسن
الامة من موت الاخصائيين من رجالها ، وانها مسئولة ان تضمن
بارواحهم مخافة ان تمتقع نرجسة او تسود فحمة ...

انتقل شوقى من رثاء العالم النباتى الى رثاء العالم الطيب
فقال مفصلا مقسما :

أما مصائب الطب فيه
فسئل به فلا الاساءة
أودى الحمى بشيوخهم
ومآبهم فى العضلات
ملقى القروس المسفرت
عن القروس المضمرة

والقارى يرى انه لم ينبغ نحوه الاول . وما كان ذلك بلا ريب
استهجانا له او توبة عنه وانما خاتمة القريحة وخد له الاختراع .
والا فماذا كان بمنعه ان يقول فلا يخرج من تلك الوتيرة - مثل هذه
الآيات .

طسريت كصرع غالب فى الأرض رسل الحميات
قدمات (غالب) جندها فتمردت بعد (المات)
امست جراثيم الملاريا من سرور (ظاهرات)
وتفرق التيفوس والد تيفود فى كل الجهات
وتألب المكسروب والد سبكتريا بعد الشتات
وبكت قسوارير الصيادل بالدموع السساتلات

فهذه آيات ليس لنا من فضل فيها سوى فضل التقليد
للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليدنا قليل لنا فیم اخطانا المحاكاة
وخالفنا الاحتذاء ونددنا عن القياس ولكأننا بصاحب « الامتياز »
الأصلى يعض بنانه ندما على قوات هذه التتمة الصالحة فانه ليس
أقص للنفس من فرصة يلوح لها تأيها بعد معالجتها والياس منها .
كذلك يؤبتون يامن خلقتهم فكيف تراهم يتكلمون ؟ وأما والله
لو توخى هذا الذى شمر لتأبين عثمان غالب ان يمازح الرجل بكلام
يعرض له فيه بعمله وصناعته مسترسلا فى الدعاية مستهترا
بالمجون متبسطا فى الفكاهة لما استطاع ان يضرب على أوقع من هذه

النغمة . فليت شعري بأي ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعين
باعد القطبين ؟! أبدوق الشاعر الفطور الذي يفرق بين شبهات
السرائر وهجسات الضمائر ، والذي لا تدق عنه أخفت همسات
المواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها ؟! يقولون أن أذن الموسيقى
المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر
يشفى أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الاحساس
المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا فما ظنك بأمير شعراء لا يميز بين
احساسين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان -
أحدهما لا تحسه النفس الا في أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط
والانشراح ، والثاني انما يخامرها في اقدس مواقف الموت واجلها :
موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته . . لا الا هكذا فليمت
الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن في دار الخلود .
مه ! ان من السخف لما تعافه الجيلة وتتقزز منه النفس
تقززها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذي تمنونا بلادة
الاغبياء بالتحرك لانتقاده اشنع هذا النوع واقلده لانه كالورم الذي
يخيل الى الفر من احمراره ولعاته انه ماء الحسن وروثي المصا
قيهى اليه يقبله ويروقه ، وحسب الطبع تقززا ان يرى الدمار
مقبلة مرموقة .

ومن نظر الى عشرة ممسوخين في بقعة واحدة فاشعزت نفسه
من رؤية عاهاتهم ومقازيرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر
قنرى حولنا العشرات والمئات من ذوى العاهات النفسية البارزة
يستحسنون مثل هذا الشعر على غثائته وعوارده بل هو لا يروقه
الا لما فيه من غثاة وعوار - خلائق كل ما نستطيع أن نعمل به هذا
الاعوجاج في طبائعها وأذواقها انها تلقت لفرط ما اخلدت الى الكسل
والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التي بقي لها أن تعنى بها وتكثر
لها ونقلت لشدة ما توالى عليها من عنث الدهر وذل الحوادث والحاج
الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى امقيا هذا البلاء للآزب
شر ما تمنى به نفس بشرية : اعقبها العجز عن احتمال الجد والتمادي

في الهزل واللجاج في السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدنا لها بل كادت تكون خلقا ثابتا فيها . وساء فهمهم للدوق السليم فأصبح جهل الدوق في زعمهم التصنيع والاسترخاء وتخثت الترف المؤث . وما كان اللين والترطب قط عنوانا على ارتقاء الدوق الانساني وحسن استعداده وانما هما تقيض هذا الدوق واقرب الى الوحشية منهما الى الانسانية - الا ترى الى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الادميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش احشاءهم وتقضم عظامهم وتلغ في دمائهم وهم يسمعون انينهم ويتلذذون بأوجاعهم كانهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب !! فاذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان في ذلك العهد !! كانوا في عهدهم الذي بلغوا فيه من الترف ونعمسة الاخلاق ما لم يروه الراوون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

(وبعد) فكانما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الدوق فانتقل الى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات الا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد أنه توفى هذه المرة الى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان لم تر آية الله احيى المومنين

يا من الشاعر المرثي ان يقوم من الموت . ولماذا ؟؟ ليرى آية ... فيحسب السامع ان الآية التي سراها الدفين بعد بعثه اعجب واخرق لتواميس الكون من رد الميت الى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم ان الاعجوبة التي يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هي النظر الى ميت يبعث ... فهل سمعتم في العي والاحالة ما هو احق من هذا اللفظ الفارغ الخاوي ؟؟ اليس هذا كابقاظ النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ وكحمل المقعد الى أوروبا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر الى مقعد يمرض في المسارح للمتعبين ؟؟ وعلى

أن يعث العلامة المدرج في اكفانه اغرب واشد استحالة من يعث الموميات التي يعنيهها شوقي لأن موت الأمم مجازي لا تستغرب الرجعة منه وموت الأفراد حقيقى لا رجعة منه في هذه الدنيا . وعدا هذا فان كان القصد من يعث الأستاذ غالب أن يرى « الموميات » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة الى قلب نظام الكون وازعاجه في ضريحه ، لا لشيء الا أن يرى المعجزة التي قد رآها ... وبعد فليذكر شوقي أن الدين يدعوهم بالموميات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ونفدت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فان كان هو شاعرا لأحد فهو شاعر الموميات ، وإن كان لشهرته حد فهو اليوم الذى يقال فيه عن تلك الموميات .

خرجت بنين من السرى وتحسرت منه بنات

ثم ما هذا الولع من شاعر « الموميات » باقامة الأموات !! فهو ينادى عثمان « قم تر آية » ويصيح سليمان « قم بساطد الريح قام » ويهتف بالأستاذ الإمام شامتسا « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشهيد فريد « قم أن اسطمت في سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود أن نحصره .. أفلم يكفه قيام الأحياء حتى يقوم له كل من فى التراب !!!

ولم ينس شوقي براعة المقطع فختم القصيدة باليق بيتين يتممان ما فيها من خطئ الإدراك وضلال الحس ، وهذان بيتا الختام .

الفكر جاء رسوله
فاتى بأحدى المعجزات
عيسى الشهور اذا مشى
رد الشعوب الى الحياة

فقى كل مختصر من عجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ، ويكاد يضع كلا منهما بالموضع المقابل للآخر . وقد ألم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول أحيانا . « ليست هذه مسألة عقل . هذه مسألة احساس » أو ما فى معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يظن الى هذا الفرق فيجعل الفكر والشعور شيئا واحدا ثم يعكس الآية فيقول ان الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم ان الحياة هى التى تنشئ الشعور ولا بدع فان من لا يفكر الا سهوا ولا يشعر الا لهوا ولا يمارس اسرار الحياة وقضاياها القامضة الا عفوا لحرى أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ما توصف به انها نكسة ادبرت بقائلها ثمانية قرون وكان فيها مقلدا للمقلدين في استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك ايها القارىء شاعرا من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعا اول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود اكنافها ويتحرى عجائبها ويستكنه اخلاقها وشمائل نفوسها من آدابها وفتونها ، الى أن سيق اليه ضيعة من صنائع شوقي فاسمعه أن ها هنا شاعر يدعونه امير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الألقاب الا لقباً مزدوجاً ، فهو اما شاعر الشرق والغرب أو شاعر الأرض والسماء أو شاعر الانس والجن أو شاعر الاقدمين والمحدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين — الى اشباه هذه الألقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتحقق ذلك لاحد كائننا من كان في العالمين : وقد تعلم ايها القارىء أن اذكىاء الغربيين وخاصتهم لا بالقول الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون اعجابهم ويزنون كلماتهم فهم يستكثرون على شاعر كشكبير أن يدعى شاعر الاقدمين والمحدثين عندهم بله الانس والجن والأرض والسماء ، وان كان لاحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتي أو هوجو أو جيتي بشاعر أوروبا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم ايامه وكثرة المعجبين به وتداول طبقات كتبه — مسوغ لهذا اللقب . فلا بد ان يلمح الشاعر الغربي في تلك الصفات التي سمعها مفالة وشططا . بيد أنه يجب

أن يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وأن يعرف المعاني والمثل العليا والخيالات التي إذا نطق بها الشاعر وجد في مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعي ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هي قصيدته في استقبال أعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجبا فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق وانج من جماعة الأطباء السائرة في الرمل ومن جماعة الأطباء .. » وهو ترجمة قول شوقي :

أئن عسان القلب واسلم به

من ويرب الرمل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظانا أنه من مقتضيات التشبيه والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » إلا أنه يتوهم أن فصائل الأطباء والأيائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم في هذا الجانب من الأرض فيتقونها ويهربون منها لضرواتها وعراهمها . ويود لو يرى هذه الأوبد الأفريقية فما هو إلا أن يسأل صاحبه في ذلك فإذا الجواب حاضر يلقي إليه بابتسامة الأستاذ لتلميذه الجهول : « كلا : كلا : ليس في بلادنا طباء مخيفة ولا أليفة — ما إلى هذا قصد شاعرنا ، وإنما هو يعنى النساء » .

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟؟ يسأل الرجل مستغربا فلا تنفخ ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فأننا نشبه المرأة بالطيبة اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الطيبة الكحلاء فكانوا يشبهون بها ميون النساء ومن ثم صارت المرأة طيبة » .

نقول : ولا يبعد أن يرتضى الشاعر الغربي هذا التشبيه على

انه منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهكم : « حسن تشبيهكم هذا ، ولكنى لا ادرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع الميرون الكحلأ ، ولم تكون شوارع مصر تلولا أن كان لابد أن تكون حسانها ظباء ووعولا ؟؟ » ثم يغفم كأنما يخاطب نفسه : « اذن فصاحبكم عاشق يتفنى ! »

وما اشد ما تكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لا يرى داعيا لذلك الافتراض : « ولماذا ؟؟ ان الشاعر ليتفزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الأقدمين » .

فيفاجأ الرجل ويجد انه قد احوال غير قليل على تباين الأمزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضا أن يحيل التقليد في الفزل على اختلاف الخلقة وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك في نهضة الأمة ليكونن اذن بين قرصين اثنين ليس واحد منهما بجائز في العقول : فأما ان الشرقيين وكبت قلوبهم واشرجت شهواتهم بحيث اذا أحب السلف العربي الى الخلف المصري متفزلا بعد عدة قرون ... وهو مستحيل . وأما ان هؤلاء الشرقيين يعيشون في ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض احدهما ويحيى ويموت الآخر حتى ما يحس اقوى خوالج النفس واعنفها وهى غريزة العشق الجنسي ، وما خلق الله لأمريء من قلبين في جوف واحد .

على انه يجنب الى حسن الظن وبخيل اليه انه أخذ يفهم بعض الفهم ويقول لترجمه : « أخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسرا : « ان الغربيين كما يتسلون احيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الأقدمين أو يتزيون بزي الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم ان يتسلوا

باحتراف أسلوب الشعراء من الأمم النازحة والأجيال الفاسدة .
رياضة وتفكها لا جدا والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من
جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه انه رياضة مقبولة .

فيفقر المسكين فاه تحيرا مما يدخل على ذهنه من كلمات
يحسبها الخانجي والفاخر . ويظن انه يذب عن شاعره المزدوج الألقاب
حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب
بالفرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا
وانما نظمها في مستقبل أمة ناهضة . . وتحية لزعمائها . .

الى هنا ينتهى العجب باليقين - فان كان الرجل قد ارتضى
التقليد في التشبيه والفزل واغتفر تقص المدينة العامرة ببابا وقلب
الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله أن يرتضى استهلال الكلام
في نهضات الأمم بالفزل صادقا كان أو مستعارا ، وأن يفهم الابتداء
بوصف محاسن النساء واطراء العيون الكحلأ ، تمهيدا للشاء على
مآثر العظماء ومناقب الزعماء ، وأن يئن ويتوجع ، في حيث يفخر
ويترفع ، وأن يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصيح
والإهابة ، فذلك ما لا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وأن
اعوزته دلائل الحكم على منحنى افكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا
فكفى بما سمع برهاننا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج ان يظلم أو
يتجاف ، ثم لا يكون بعد ذلك إلا معلوما .

* * *

وتحن لم نمثل في الحديث المتقدم بشاعر غربي لأن فهم هذه
البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تغييب عنهم
بساطتها ان يفهموا على أى وجه تلوح غثائت التقليد أن خلصت
عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القواعد المصطلح
عليها . والا فإى انسان تجرد من الانخداع بالتكرار وخلع ريقه

التقليد لا يشمر لأول وهلة بالخلط الشائن في هذا الضرب من
الشعر !! ما الشعر الا كلام فان كانت له ميرة على الكلام المتبدل
فميزته انه اجمل وابلغ واحسن وضعا للمعاني في مناسباتها . فويل
يتكلم الرجل في السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد
والهيام وتقدير الحوادث الجسم ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل
ان يخلط في قصيدة واحدة بين ابعاد موضوعين عن الانتظام في نسق
واحد !! فلو انه كان صادقا في عشقه لقيح منه ذلك بين ندمائه
وسجرائه ، دع عنك قبح اذاغته بين الملا ، فكيف به وهو متصنع
لا يحشق بغير اللسان !!



لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم
الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نوى
تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة تذكي هواه ، هجراه كلما راح او غدا
حبيبه يحن الى لقاءها او صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح
ينظم الشعر في الأغراض التي من أجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة
لم تقدم بين يدي ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو
السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون
من جوف الصحراء الى ملوك الحيرة وغسان وفارس وينتجعون
الامراء والأجواد في اقاصى بقاع الجزيرة يحملون اليهم المدائح
يبدؤونها احيانا بوصف ما تجشموه في سبيل المدوح من فراق
الاحبة والم الشوق وطول الشقة وحيانا كانوا يصفون الناقة التي
تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظما والطوى ومواصلتها الليسل
بالنهار سميا الى المدوح كنساية من الشوق الى لقاءه ، وكان
الغرض في الحاليتين واحدا وهو تعظيم شأنه وتكبير الأمل في مشوبته ،
فكان الابتداء بالغزل ووصف المطى في قصائد نظمت في المديح

وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة لا يعد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج الى النموذج والاستاذ فأقاموا المتقدمين اساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لا يزالون يقدرون على الامصار فينهجون نهج أسلافهم مطبوعين أو مقتسدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع في هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الأدباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدما حسنا فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وأفرد كثيرا من الغزل في قصائد قائمة بذاتها وأشهر هؤلاء أبو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك في العظام كما صنع أبو تمام في بآيته المشهورة التي مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفي رأيته التي أولها .

الحق ابلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرب حذار

وكما صنع المتنبي حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه الى الروم فقال مفتتحا :

**ذي المعالي فليعلون من تعالي هكنا هكنا والا فلا لا
حال أعدائنا عظيم وسيف الد ولة ابن السيوف اعظم حالا**

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عند انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الراى قبل شجاعة الشجعان هو اول وهى الحل الثانى

وكما صنع الشريف واخرابه في كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائع وقل الابتكار أو انعدم ونشأ من شعراء الحضر جيل كان احدهم

يقصد الأمير في المدينة وأنه لعل خطوات من داره فكانما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكر من الغلوات التي اجتازها والمطايا التي انضاهها وحقوق الصبابة التي قضاه . وكان الواحد من هؤلاء يزج بفزله في مطلع كل قصيدة حتى في الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون . والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول أبواب لم تخطر لأحد من المتقدمين على بال . . . ، يجيء شوقي قيتماجن ويتصابي في مطلع قصيدة ينتظر بها مستقبل أمة ويقول فيها :

قد صارت الحال التي جدتها وانتبه الفافل من لعبه

ويجىء أناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين أنه مجدد وأنه عصري بل أنه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الفزل الذي استحل لأجله اتيان هذه المجانة والعبث ؟؟ فقد يكون له عذر الإجابة لو كان مبتدعا فيه أقل ابتداع وإن حق عليه اللوم لوضعه في غير موضعه . ولكنه هو الفزل الرث الذي ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظاميين والشعاريير بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فأى سوقة من صعاليك الزرائين لم يغسل رجليه في وعاء هذه المعاني التي نضج بها شعر أمير الشعراء ؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعي العروض لم يقل في وصفه : « قد يتثنى كالبهانة » « أرداف مرتجة كالكتبان أى كأكوام الرمل » « خد كالورد » . « حسان كالأنهار أو كالنجوم » . « مشية كمشية القفا » . « عينان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل » إلى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة . وهذه هي روح العصر فيما يحدسون !!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته إلى موضوعه . فاما الموضوع فلا نقول فيه سوى أنه مقالة منظومة كسائر المقالات التي نشرتها

الصحف يومئذ لولا انها متناقضة متدبرة وانها خلو من الاسباب
والحجج التي بنى عليها الكاتبون رأيهم واما الكلام الشعري فيه
ففى بيت القصيد او بيتيه وهما :

قطارهم كالقطر هز الثرى وزاده خصيبا على خصبه

لولا استلام الخلق ارسائه شب فنال الشمس من عجبه

وانه لالىق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح ، ولو كان للشاعر
فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان اشعر الشعراء ولكن (مكره
اخوك لا بطل) .

ولا اسهب فى التعليق على البيتين ولكنى اروى مشاهدة يتبين
منها القارئ مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ،
وان فى الاطفال اللامعين خيالا افطن وتمييزا اصفى من شاعر يكف
على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة .

بين اشربة الصور المتحركة ولا سيما الامريكية منها مناظر
خاصة لاطراب الصغار وجلب المسرة الى قلوبهم . ومن اشدها
غرابة المطاردات الجامحة التي تجرى فيها خوارق العادات فتتحرك
الدور والجواسق وتتطاير الكراسى والاوراق . وهى كثيرة لا اظن
زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحدا منها - حضرت منظرا
من هذه المناظرة فاخذت المطاردة ماخذها المألوف : هارب يعدو
ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة الى ان
وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه فى سيارة فوثبت
به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستفزه
المعجب فيشب ضاحكا . وما اخالهم الا كانوا مصدقين ما يروونه
وانما ضحكوا لان المنظر مضحك على كل حال . . . فليت شاعرنا
الكبير الذى قرع ابواب الخيال نيفا وثلاثين سنة حضر يومئذ لسمع
ضحك الاطفال من سيارة تطير فيعلم ان طيران القطار بقاطرته

ومركباته في الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل
أن يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى الطار شاباً فوق الرأس في
طريقه إلى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وأرساته يمنعونه
ويكبحونه - لقلب حلقه من الاستهزاء على ولعه بالأغراب ، والأمر
بعد لا يتطلب خيال شاعر فإنه من مدركات العامة السليج ولولا أنهم
يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعب بينهم رقية
كهذه الرقية الهزلية : « الحمد لله الذي لم يخلق للجمال أجنحة
فكانت تطير فوق بيوتكم النخ النخ » .

أما أن القطار كالطر يزيد الثرى خصباً على خصبه فتشبيهه
لا أصل له . ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأي قرينة من القرائن
أو جامعة من الجوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من
المنفعة . على أنه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار
والقطر غير التجانس في الحروف . وهكذا تتعلق أشعار المقلدين
بالحروف والألفاظ لا بالحقائق والمعاني . وشوقى كما قلنا في أول
المقال مقلد المقلدين .

النشيد

ربما كنا في غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق احدا يتقبله ويحلله المبرلة التي احلته فيها لجنة الاغاني والالحان . فان المنا به الماما في طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهي توقيف بعض القراء على قيمة احكام اللجان ، وانها في اكثر الاحيان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والادب في مصر فقد يجهل سواد الناس حقيقتها . اما في اوربا فربما بلغ من تهاون الادباء بشانها ان يطبع احدهم رسالته او قصيدته ويثبت عليها بالخط العريض « لم تجزها جامعة كذا » كما صنعوا برسالة شوبنهاور التي كتبها في الاخلاق وقدمها الى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت مقطة الابد .

تصلت لجنة الاغاني للحكم في اناشيد الشعراء اولت نفسها هذه الكفاءة — وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة باشياء جمة قل بين اعضاء اللجنة من يمد يده في واحد منها . فمن شروط الحكم في الاناشيد القومية ان يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الالحان على المعاني ، مطلقا على اناشيد الامم ، بصيرا باخلاق الجماعات واطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الراى والمعدل والجهل باسماء من يحتكمون اليه . فهل بين اعضاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟! اننا نعرف من بين اعضائها اناسا يجبل ذكاهم وتكيز فضلهم في علومهم ونراهم اهلا للحكم في امثل المشكلات التي

تفرغوا لدرسها . بيد أن التفوق في شيء لا يفيد التفوق في كل شيء .
وإذا علمت أن الرجل من الاختصاصيين يقضى العمر في فنه بإحشا
منقبا ثم تعرض له المسألة فيصيب ويخطيء ويبرم اليوم ما نقض
أمس ، فأحر بك أن تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم
يدع الحلق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل إلى
إنكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق أن بعض أعضاء اللجنة عرفوا في الجلسة
وقبلها نشيد شوقي المقدم اليهم غفلا من الأمضاء ، ولا ندري لم
تكلفوا اغفال اسمه وراوا ذلك شرطا ضروريا لنزاهة الحكم ثم
سمحوا لأحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر في
الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من أكثر الأعضاء
إلى رفضه ؟ بل لا ندري لما أرجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد
وتعملت حتى يتم شوقي نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا ؟
أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع أنشودة
واحدة ؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين في إحدى الفرق
يلحنونه ويروضون أنفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الأوراق
وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر في أناشيد مجهولة ،
واسرار مكتومة ؟ فهل سعى النشيد وحده إلى دار التمثيل ؟

ومما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقي وحرصها على
اختيار نشيده قبلته على ما فيه من مأخذ وعيوب ، نبه إليها بعض
الفضلاء ، وردته إلى صاحبه ليجتهد في إصلاحه قبل إذاعته من
قبلها . وذلك أن عضوا عاب قوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للمسز ركن
ليس لكم بوادي النيل عدن ؟ الخ الخ

وقال إن البيت الثاني منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح

ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادى النيل بـعدن والنيل بالكوثر ؟؟
فوافقوه على انتقاده . وانكر بعضهم تأليف البيتين الاتيين ومعناها:

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفنا الصليب على الهلال
واقبلنا كصف من عوال يشهد السمهرى السمهرى

فانتقدوا قوله « ملة ذى الجلال » ونقل الى ان احدهم قال :
اننا نجعل مصر وطننا يشترك في حبه ابناؤه ، وأما ملة ذى الجلال
فهى الملة التى يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذى الجلال »
وهو انتقاد شديد فاتنا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون
الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟ انما يقال اتحدوا في الوطن واتركوا
الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا
قوله « الفنا على الهلال » ولا ذكره السمهرى ، وقال آخر ان عبارة
« كصف من عوال » افرنجية التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا
نحمل تبعته . ويظهر أن الناظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع
المحافظة على المعنى فأصلح بيتا واحدا وترك البقية على حالها .
أصلح هذا البيت .

نموت اليك مصر كما حيننا ويبقى وجهك المقدى حيا

وكانوا قد اخذوا عليه قوله « نموت اليك » لأنها لم تسمع في
كلام صحيح فلم يستطع اصلاحها بأحسن من أن يقول « نموت
رضاءك مصر النخ » - وقد نشر كذلك في صحيفة الاخبار - فلم
يقتنعوا . فجعلها أديب في النسخ الأخيرة « نموت فذاك » فافتنعوا !!

ونذكر ايضا انه كان بين المحكمين أعضاء من المفنين والموادين
جاء بهم ليحكموا في أى الاناشيد أصلح للفخر القومى واشد اعتلاجا
فى النفس وإبتعائا للحمية ومطابقة لنفسية الأمة !! وليديروه فى
اللحن الذى يشبث القلوب الخائرة وينهض بالهمم العائرة ويسمعه

الواتى فتضطرم نفسه عزما ، واليأس فيهمج الى الأمل قدما ،
والعدو فيتضع قلبه رعبا وغما .. وليكون اللحن صوت الامة
فى سمع التاريخ ونحوها فى المواقف والازمات فانظر أين ذهبوا بهؤلاء
المظلومين هل تعلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق بلسان
النفس يائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ،
وصارخة ومبتهلة ؟! وهل فيهم من يروى بأنقامه عن جلال الحياة
وجمالها وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغي أن تكون الموسيقى ؟!
لقد علم كل انسان أن ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى
ولكنها اصوات اللذ والضراعة والحن ينشدها النائم فلا يستيقظ
ويسمعها الصاحى فينام .

ثم نذكر تبرع شوقى بالجائزة لنادى الموسيقى . وكان هذا
وعده المعروف ولو أنه لم يعد لما دار بخلد احدهم انه على غناه
يطمع فى مائة جنيه يحتجنها لنفسه فكان بهم الأعضاء أن يفوز هو
بالجائزة الموعودة ، وجلهم من أعضاء نادى الموسيقى ، والنساذ
بحاجة الى اعانة المتبرعين .

ولا ننس أن اللجنة حكمت المويلحى ، وهو رجل تصل اليه
هدايا شوقى . على أنه تخلف عن الحضور فاضطروه الى ارسال
رأيه اضطرارا . وحكمت حافظا وقد عرف أصحابه أنه يتقى أن
يرمى بالحسد أن أوما بالنقد الى قرينه . ومن غرائبه انه كان
يتحنى على النشيد فى الجلسة وقبل اجتماع الأعضاء فلما أعلن
الاستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكت .

وعلمنا غير ما تقدم أمورا لا نحب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل
على هوى اللجنة فى جملتها . فلنعد الى النشيد غير آبهين للحكم له
أو عليه ، وليكن قياسنا اياه أن نلتصق فيه أبسط الخصال التى
هى قوام كل نشيد ولا يجوز أن تخلو منها الاناشيد القومية .

يشترط فى النشيد القومى قوة العبارة وسهولتها وان لا يكون

وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب
وموافقا لكل زمان . وهذا أبسط ما يطلب في أناشيد الأمم . فهل
نشيد شوقي على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط
أو بعضها ؟؟

فأما قوة العبارة فليس في النشيد بيت يدب له الدم في عروق
منشده . وكل مفاخره أفرغت في قالب هو أقرب إلى الأخبار منه
إلى الحماسة . وأقواها قوله :

لنا الهرم الذي صحب الزمانا ومن حداثاته أخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالي نمانا أوائل علموا الأمم الرقيسا
وليس في هذين البيتين من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس ،
وليس فيهما قوة لا تجد مثلها في قول من يقول « كلز لى بيت سمته
كذا من الأذرع . بابيه على النيل ، وضوء الشمس يفساه من جميع
النوافذ ، إلى آخر أوصاف المساحة .. » فإى فرق بين فص
المعلومات والحماسة إذن ؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه
ثم من أعينات المقيد المجهود فخفضت فيه ثلاث همزات تخفيفا معيبا
واستعصى الوزن والقافية على صاحبنا حتى صير « سئلت »
سئلت و « تها » « تها » و « شيئا » شيئا : نعوذ بالله من النسي .
وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلقه :

بنى مصر مسكانكم تهيئا	فيها مهسدوا الملك هيبا
خلوا شمس النهار له طيبا	الم تك تاج أولكم طيبا
على الأخلاق خطوا الملك وابنوا	فليس وراءها للعجز ركن
ليس لكم بوادى النيل عدن	وكونرها الذى يجرى شهبها

فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟؟
أجنيى يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟

ولقد استوطنا شوقي مطية الفلسفة والواعظ بعد ان ركب
حمارها بيت واحد شوقي المعنى وهو قوله .

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى عليه ذهابا وايابا في كل مكان ومقصد . حتى طلع
لنا يا ذنى حماره الفيلسوفى هذا في موعظته « على الاخلاق خطوا
الملك » ولم يجد على الباب من يقول له : يمينك او شمالك . .
فكانما كان شوقي على رهان ان يخالف قواعد الاناشيد ما امكنه ،
وكانما لهذا احرز السبق لا لان نشيده كان كما وضفته اللجنة
« اكفاهها وارفاها بالغرض واجمعها للمزايا التى ينبغى ان تتسق
لنشيد قومى مصرى » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من
كل شرط يتسق للانشيد لما عرفنا كيف كان يسبق في هذا المضمار .

وفي المقطوعة الاولى خطأ تاريخى ما اظرفه في نشيد امة تفتخر
بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر
مصر وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . واما
تاج الفراعنة الاول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد
وتاج ملوك الوجه البحرى ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة
الاولى في المدارس الثانوية ثم حدثت بعد ذلك تيجسان كانوا
يحولونها بصور الطيور المعبودة او التى يرمز بها الى العبادات ولم
تكن الشمس قط حيلة لهذه التيجسان . . فياحبذا النشيد تتغنى
به امة فيكون مطلعها عنوانا على جلجلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارىء ان نأخذ على شوقي مبالغته في قوله : « خلوا
شمس النهار له حليا » فاننا لا نحاسبه على كلمة له فيها وجه
تاويل .

واما المراقبة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سننظر
طوال الدهر كدائنا في يومنا هذا ، فنظم لنا نشيدا لا تتخطى به في
جميع العصور ان يتها مكاننا . وان لا نبرح نشرق في التمهيد ونأخذ

في الاستعداد وتبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشديد الأركان . وما علمنا شاعرا قوميا يطلب اليه ان يكون فال الأمة وهاتف مستقبلها فينصب فيها تميب النحاس وينلجها جمودا لا تتزحزح منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقي بالمواقف من قصائده الأنفة ، واجهل ما يكون هو اذا وقف موقفا وطنيا أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعتسا البصيرة ان يكلف « ابن بجدتها » انشاء دعاء قومي ، أي دعاء لا يعوقك دين من الأديان ان ترتله في البيعة أو تشدو به في الكنيسة أو تصلي به في المسجد ، فيخيل اليه انه اذا جمع فروق الأديان كلها في جملة واحدة فقد أتبع له هذا الغرض . فيستشفع في دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبي الحق » فيكون ماذا ؟

يكون ان الاسرائيلي يحرم هذه الصلاة في بيعته لانه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد - وان المسيحي لا يدعوا الله به في كنيسة لانه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الإسلامية ، ولانه يدين بربوبية المسيح لا برسائله فحسب وان المسلم يصلي به وحده فكانه لم يشر فيه الى دين غير دينه ، وان الدعاء القومي لا يكون دعاء لأحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو ان طاهيا صناعته تجهيز الموائد قبل له ان ثلاثة من المدعوين في الدار ليس يشتهي أحدهم طعام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعا بمزج اطعمتهم كلها في صحن واحدة لطرد من فوره فاعجب لشاعر قوم يغفل حيث لا يغفل الطهارة ويفرق في غفلة الذهن حتى أحسبه أحيانا يعتمد الأمان فيها ويطرقها من الباب الذي يقضي به الى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصصه ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد ان خطر له أن يجمع شفاعات الأديان أجمع كي تكون شفاعاة لكل دين ، عمد الى لصق الأنبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذي لا يناسب هذا المقام ، والذي

لو كان هو وصفه الفد لا سواء لوجب السكوت عنه هنا . وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدري تساعر مصر من رق من هرب موسى ؟ انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به !! وقد نجد في خفراء الريف كياسة تمنعهم ان يطلبسوا الاقالة بما يذكر بالذنب ، او يتوسلوا الى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقي ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية فلا هو في الشعر ولا في النثر شاعر قومي موفق العبسارة : وقد قراناها لتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطأه في النشيد أخف وأهون ، من حيث ان الاناشيد لا يصلى بها في المساجد والكنائس ، لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد اننا لا نرى معنى لزج الاديان في الاناشيد الوطنية ، فقد كان يكون ادل على الوفاق ان لا نجعل وفاق الاديان مباحاة ومائرة ، لان المرء يباهى بالشيء النادر او غير المنتظر وهذه الامم المتحضرة والتبدييه اليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت اناشيدها من ذكر الدين ؟ اترأها لا تحب ان يكون الوفاق شعارا لها .

ولقد قدمنا اننا لا نقصد الى الافاضة في نقد النشيد ، فكننا نقارنه بما نعلمه من الاناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . اما وقد اخذنا من مساوئه ما اخذنا فليس يسعنا ان نهمل مأخذا سسمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك انهم يستقبحون تلحين احدى مقطوعاته وهي هذه :

تطاول عهدهم عزا وفخرا

فلما آل للتاريخ ذخرا

الخ الخ

نشانا نشاة في المجد اخرى

ويقولون أن التنوين لابد أن يسقط في الانشاد فيخلفه المد
وترجع الصوت فإذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة « فخرا » ومد بها
صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع
النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولسنا نحن ممن يبالي
بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد في موقفه والملحن في صناعته

نقول : هذا هو النشيد الذى « يبقى لحركة هذه الامة شعارا ،
ويتخذ الحوادث الوطنية على وجه الزمان منارا » كما تقول اللجنة -
نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه احد
فيما علمنا الا عجب من تفضيله على النشيد الثانى ومن اجترأ
اللجنة على تقديمهما معا الى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس
ومبالغة فى احتقار رأيهم . ولا أخفى عن القارئ اننى ما كنت أظن
فى جمهور قراء الأدب استقلالا يقاوم تأمر الحكيم والصحافة
وسماسة المجالس حتى رايت الاجماع على الشك فى حكم اللجنة
وتزوعا الى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشيد
المنشورين ، وفى هذا الاستقلال امل نفتبط به ونحمد بشائره .

عباس محمود العقاد

النشيد القومي

راينا ان تنشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقي
ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذي بخشاه شوقي من التفات
الاذهان الى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر
بعد شيئا من شعره للقراء وشوقي يملأ طباق الارض باسمه كل يوم
منذ ثيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لا يخفى
على احد . وقد اتصل بنا انه كان ثالث الاناشيد التي اختارتها
اللجنة فاذا حسينا للمحابة حسايها جاز ان نقول انها حكمت
بتفضيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القارئ التفاوت بين
النشيدين حتى في الخصلة التي اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب
هنا أشبه بمناجاة النفس وهي في نشيد شوقي مخاطبة اجنبى
ممنزل للشعب الذي يناديه . وهذا هو النشيد :

يا بنى النيل واحفاد الالى
اطعموا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الاهرام والمعالم لا يبتنى
الا خصاصا من هشيم
اذكروا ان نرى هذا البلد
من تجاليد الجود العظيماء
لا تظنها ارجل العادى الالذ
وبكم ابنسائهم بعض الذمماء
تربها التبر المصفى المنتقى
لا الذى يقنى الشحاح الادنياء
فامنموا كنزكم ان يسللا
او تميشوا عمركم عيش عديم

لن تروا في الأرض عنسبه بدلا
ما لكم كنز سوى هذا الأديم

اذكروا ان عليكم واجيبا
لبنينا في بطون الأعصر
فاحفظوا هذا التراث الواصبا
فهو حق الوارث المنتظر
نتقاضي الأرض عصرا ذاهبا
فلنصنعه للعصور الآخر
سنؤديه اليهم اكتملا
لم يفكره زمسان او خصيم
فحصى مصر تحساماها البلى
وبنوها خير من يحصى الحرير

اذكروا حاضركم كيف يقسام
ليس يغنيننا تليد القسما
ما التماثيل المهيئات الجسم
وابو الهول رهين الصمراء
ما المسلات على باب الرجام
والنواويس وفيها المومياء
ما عظيم تالد من المسلا
في ثسايا حاضر غير عظيم
فاجعلوا عهد العلاء متصلا
كاساق النر في العقيد التنظيم

اذكروا مهما بلغتكم سؤودا
انكم لم تيلفسوا اوج الكمال
ابعدوا فوق المنال المقصدا
فبنو الشمس لهم اقصى المنال

كم عبيدنا قرصها المتقدما
فاتقدنا في حماس ونفصال
نبتنى الهيكل يتلو الهيكل
خالدا في ساحة الرمل مقسم
وسيبقى موطن الشمس الى
يوم لا يبقى لها قرص ضريم

اذكروا ان التفانى والفسلاب
في سبيل المثل الأعلى البعيد
نفثا فيكم وانتم من تراب
شعلة غراء من معنى الخلود
شعلة تجلو عن الحق الحجاب
وتصفى النفس من رجس الوجود
فاضرموا في النفس هذى الشعلا
اضرموها تكفلوا الفوز العميم
مثلما اضمرت النار على
مذبح الرب بمحراب كريم

اذكروا ذلك وامضوا قدما
لا تكن وجهتنا غير الامام
تزدجينا دقة القلب كما
يقرع الطبل لجراذ لهام
فنسوغ الموت ذودا للحمى
ونذيل العمر سعيا واعتزام
فبحق نحن احفاد الالى
اطلموا القجر لتاريخ قديم
رفعوا الاهرام والممالك لا يبتنى
الا خصاصا من هشيم

عبد الرحمن صدى

صنم الألاعيب (١)

شكرى صنمى ولا كالأصنام . ألقت به يد القدر العابثة فى ركن
خرب على ساحل اليم - صنم تتمثل فيه سخرية الله المرة وتهكم
« أرمستفانيل السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على
جعل مصابها فكاهة الناس وسلوانهم . و - لم - لا يخلق الله
والمضحكات وقد آتى النفوس الاحساس بها وأشعرها الحاجة
إليها ؟؟ ولم يلتزم فى الإنسان مالا يتوخى فى سواء من وزن واحد
وقافية مطردة ؟؟

هنالك اذا على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمى
بهذا الصنم . وكأنما أرادت أن تبعث على تدبر القدرتين : هنا تبيع
مزيد وأبد لا يحد ، وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد ، وحياة متجددة
وأواذى متوئبة متولدة - وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجيلة
باردة جامدة . لا تمتد يدها الى الثمار تهدلت بها غلذبات
الأشجار ، ولا يملأ صدرها حسن الاصال وروعة الأسجار . ولا
يستجيش الحياة فى عروقها منظر الكمائم تتفتح عن آتى الأزهار ،
أو الغمام ترسم فى صفحة السماء المقلوبة أبهى الصور أو الخضرة
فى مستهل الربيع تكاد العين « ترى » ذيوها وانتشارها بل « وثبها »
من شجرة الى شجرة ومن عود الى فنن حتى تعود الحقول الى آخر
مدى البصر بحرا مائجا من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر

في الصباح البليل وقد انقلب اكمنه الانداء فتساندت رؤوسها
كان سربا من المذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب أبيض .
كلا ليس في كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك
هذا الصنم لأن باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس
نفسه وصار لا يتقده منها ومعا منته به من صنوف البلاء الا ان
تهدمه فؤوس الكاشفى طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول
لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجد نور الحياة وحرها ولا أغنيا
عنه من جمود طبعه شيئا وان كان وهو ملقى بين أنقاض حياته
يتوهم انه ملهب الموج بسياطه ومدير الافلاك بتدبيره وحكمته .
يقول كلما اعجبه شكله أو حاله أو آثاره نبذه واهماله « انا اله
الشعر » فتلطمه الرياح وتدحرج ثقله على أفريز البحر وترمييه
الأمواج برش من سخرها وتسك أنفاده برعد من ضحكها فما اجله
من اله يتضحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس المدر
اذا كانوا اسلم فطرة من ان يكتروا لدعى أخرس لا ينطق ولا يبين
واذا تركوه غارقا في طوفان من الأوحال النفسية مدفونا في قبر من
بكمه العجيب . واى يكمل اعظم مما اصيب به هذا المنكود الذى
لا يكفيه ان يدعى النطق حتى يريد ان يكون شاعرا ونبيا فنيا
ورسولا يدين هداية في الأدب ؟

وانت ايها القارئ قد تعلم ان سر النجاح في الادب هو علو
اللسان وحسن البلاغ وقوة الأداء وان على من يريد ان يشرح ديننا
جديدا « لاطفال » هذا العالم او ان يحدثهم بما احب اسلافهم في
سالف الزمن او بما يلذهم ان يحبوه لو عرفوه ان يذكر انهم لم
يتعلقوا به بعد ولا استطعموه قاسمراوه وانه لكى يغريهم به ينبغي
له ان يتوخى القوة في العبارة عما يريد فان الناس خليقون ان لا
يؤمنوا الا بمن عمر صدره الايمان .

وقلما ظهر كاتب او شاعر الا بالأداء وكثيرا ما يمتاز بعض

الكتاب وتخلد آثارهم لما أوتوه من القدرة على اجادة العبارة عن آراء
غيرهم كأي اسحاق الصايء كاتب الملوك والأمراء وان كان لا محل
لهم بين المفكرين وأصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة
محور انقلاب في تاريخ العقل الانساني والذين يستطيعون ان
يستغنوا الى حد ما عما لا مسمح للاديب عنه . وعلى قدر ابتعاد
الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الدهن المشبوب
والمواطف الذكية تكون الحاجة الى ضرورة فن الأسلوب .

ولعل هذا اكبر الاسباب التي افضت الى خمول شكري وفشله
في كل ما عالج من فنون الادب لانه لا أسلوب له اذ كان يقلد كل
شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء ان
يجيل نظره في كلامه ليدرك ذلك اذا كان على شيء من الاطلاع فاذا
لم يكن فهو لا يعيبه ان يرى ان يستعمل اللغة جزافا ويكيل «توافيق
وتباديل» كما يقول الرياضيون — من الكلام غير واضحة ولا مؤدية
معنى بعينه ويسطر على الطرس اصداء متقطعة لاصوات مألوفة
لا رموزا منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك في
موضعه من هذا النقد .

ويخيل الينا ان شكري على كثرة الشكوى في شعره من الخمول
وحقده على اغفاله الناس امره كما هو ظاهر من قوله :

**قد طال نظمي للأشعار مقتنرا (١) والقوم في غفلة عني وعن شأني
هذي المعاني تناجيهم فما لهم لا ينصستون بأفهام والهان ؟**

وتعزيه بأن الزمان سينصفه وبديل له من خصومه وتظاهره
بالاطمئنان الى حكم الايام في قوله :

**لرمي بشعري في خلق الزمان ولا ابيت منه على هم وبلبال
مجاراة للمتنبى وتقليدا له في قوله :**

اتام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختم

تقول يخيل اليّ ان شكرى لو شاء لفطن الى سر هذا الخمل
وعلة ذلك الاهمال ولعرف ان داءه كامن فيه وان الناس لا ذنب لهم
فقد بحثوا في شعره على شيء جليل يروع أو حسن يلد ويمتع أو
مستظرف يلهي ويسلى وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة
قلم يجدوا عنده غناءهم والفوه يريد أن يجعل نفسه هزؤة السخفاء
وضحكة القارغى القلب والعقل جميعا . ولقد كان هينى الشاعر
الامانى الجليل يسخر من نفسه ولكنه كان بذلك يسخر بالانسانية
كلها ممثلة في شخصه ولا يسع كل قارئ الا أن يحس أنه اصاب
موضع الداء . اما شكرى الذى اراد أن يقلد هينى والذى زعم أن
العالم يفقد بموته ساخرا عظيما وذلك حيث يقول :

وان « ادرج » فى قبرى قتيل الحب والياس
فمن يصدح بالشعر ومن يسخر بالناس

هذا الساخر العظيم والصيّدح الفريد والرسول الجليل
لا يطمع فى منزلة ملحوظة ولا تشرّيب آماله الى سمو قلق وانما
غاية ما يرجو فى حياته أن يفوز به على قدر ما استطعنا أن نستوضح
غرضه من ايماءاته الخرساء ... وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهدأ
ثورته اذا بلغه هو ان « تمر به الحسان فترتضيه » !! هذا هو دينه
الذى يدعو الناس الى عبادته ولا ينفك يشكّوهم الى الزمان
ويشتهم ويرميهم بالغباء لانهم لا يستمعون اليه . اليس هو القائل
فى بعض هرائه اذا لم يكن الناشر قد نحلّه ذلك تكاية فيه :

كفانى من نبيه الذكر اتى تمر به الحسان فترتضينى

ولا ادرى ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعر والتبريز
فيه أنه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل اقام نفسه فى معرض
تمر به فيه وتجسسه بميونها واكفها كما يفعل الصبيان باللعبه
والصور ؟ وما ذنب نصف الناس على الأقل اذا كانت هماتهم
ومساعيهم وآمالهم تنأى بهم عن دائرته الضيقة .

وعلى انه عجز عن ايضاح هذا القرض الضئيل اذ من الذى
يستطيع أن يفهم شيئا من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتحرج
أن يقول فى نفس القصيدة التى انزل فيها دينه على الناس وأطلقها
من قيود القافية - والوزن أحيانا - لكيلا يعوقه عن التحدر شيئا
معتبا الغرام :

أقصينا ونحن مقربونا من التبيان والأدب القسزير

ولعمري ما عدا الواقع فى قوله انه مقرب من البينار والأدب
ولكن التقرب منهما شيء وورود شرعتهما شيء آخر ، وهل بل طرف
لسانه من معينهما الفياض من يقول :

وفى السعى شيء يعوق الطماح فيخطى الأجل ويصمى الأفلا
ولو سئل هو نفسه فى معناه لضاقت عليه مذاهب العول و من
يقول فى صفة المشنوق :

ضاقت الأرض عن ماكنه فاء تناض عنها برقة المتحسود
كأنما حسب المرزوء فى عقله - أن كل ما فهمناه من البيت هو
المتحسود - أن المشنوق سيظل معلقا فى الفضاء الى الأبد أو أن
الأرض تضيق عن شيء من المآثم أو المحامد أو أنها هى التى لفظته
وأعلته لتمكن حضرته من وصفه . ومن العجيب والذى يدل على أن
شكري متكلف لا مطبوع وأن ما يزعمه من أنه من أهل المذهب الجديد
فى الشعر باطل انه هو نفسه قال ينهى على المتأخرين حماقاتهم
وسخافة مناحيهم .

« وإذا صلب أحد الأمراء قالوا أن قاتليه أجلوه فلم يرضوا له
القبر وينشدون أبيات الانبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم عسلاك من بعسد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا من الأكفان ثوب السافيات

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر في قلب الحقائق واظهار الدميم
مظهر الحسن . . وليس ادل على جهل وظيفة الشاعر من قرنهم
الشعر الى الكذب وليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ومفسر
لها وليست حلاوة الشعر في قلب الحقائق بل في اقامة الحقائق
المقلوبة ووضع كل واحدة منها في مكانها الخ .

فما احلى هذا الكلام واصدقه وما ابعد قائله عن العمل به
وادناه الى المتأخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول
« كله عيشا لا طائل تحته » او ما جدره ان يكف عن دعواه انه من رجال
المذهب الجديد في الشعر وهو لا يقلد الا السخفاء من القدماء
باعترافه . اترى هذا المفتون يحسب انه يستطيع ان يخدع الناس
بهذه النظريات التي ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما
كان شعره من النوع الذي يتعاه على سواء ويعيبهم به . ام ظن انه
يكفى ان يلوك المرء جملا كالبيغاء ليكون في نظر الناس حديثا سائرا
مع الزمن مؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر ان هذا هو الذي يعتقد
شكري فينا تراه يقول في مقدمات ديوانه « ان الشاعر الكبير (مثله
بالبداهة) يخلق الجيل الذي يفهمه ويهيئه لفهم شعره » ترى له
في بعض الدواوين يصف ليلة ذكرها :

بيت النسيدي فوق الزهور مرققا

كما انبعث الطل الرقيق ليقطرا

او قوله في فلسفة « تراوج النفوس » :

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما

ومهرها الحب لا يفلو لها المهر

من لي بنفس ادى نفس بها مزجت

كما تمازج في وديانها القسدر

والنفس في عيشها شتى منافلها

منها القلوب ومنها السمع والبحر

(المقصود هو البيت الأخير) فإى جيل يريد هذا المائق أن
يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السير كما ينطقها هو) أما
كفى أن فى الدنيا سخيفا مثله حتى يطلب أن يوجد من أمثاله جيل
يرمته ؟ وإى بلية تكون شرا على العالم من هذه ؟ وإى خطب يكون
أدهى وأعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال
القائل :

كاننا والماء من حولنا قوم جلوس حولنا ماء !
وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد الى
النقد التفصيلى أن نورد للفراء مثالا لشعر السخر الذى يساهى
به قال :

ناصر صروف النهر مستقبلا	قلاله لو جزته اقصر
فجز من كتبه خصلة	لعلها من خلفه ترفع
فالنهر إن اقبلت ذولمة	لكنه من خلفها اقرع
معلمه مثل طوع النى	وحسرة ما خلف المطمع
ولا ترم بالنم صفعما له	فانما يصلع اذ يصفع
فراعه مثل قراع الظبي	وانما يقرع اذ يقصرع
فاطسل قفصاه بهداد لعل	اللون من روقته يخدع
وغض عنه نظرا واعيا	فانما يمد يدك ما يطبع
وان جرى فى الدم كره له	فخير ما يجدى لك الموضع
حجامة لا شك فى نفعها	وقد يضير المرء ما ينفع
ولا تعف صسحبه انه	بالرغم من صسلعته أزوع
واحن له الراس لكى لا ترى	فانها من خلفه تلمع

وتحن انما نمثل لىكم هذا المسكين ولا نستقصى مخافة أن
نحتاج الى نقل كل شعره على التقريب . ونقول على التقريب
لان له ابياتا مبشرة فى اجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره
على مثاله منسوجا على منوالها لصار صنما معبودا
لا منبؤذا كما هو الآن . وما بالعجب أن يكون له بضعة ابيات

مفهومة فانك لو جلست ساعة الى مجنون ابله لجرى لسانه
بجملة او جمل تلمح فيها اثر العقل . وان كان لم يفكر
في ميلها من الصواب وحظها من السداد . وللعقل الداهل المضطرب
انتباهات فجائية لعلها من اقوى الدلائل على الرزء فيه وقد جمع
صاحبنا الى اليكم الذى مثلنا له ضعفا في الدهن واضطرابا في جهاز
التفكير لم تنفع في معالجتهم كثرة القراءة والاطلاع على خير ما
انتجت العقول . وقد يعلم القارئ او لا يعلم ان الاطلاع قلما يجدى
اذا كان الاستعداد مفقودا وكان الدهن غير مستو او صالح « لهضم »
ما يتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد
بالموجود . كالمعدة الضعيفة لا ينفعها ان تزحمها بالوان الطعام
وكثيرا ما يكون الاقبال على الكتب والولع بها نوعا من الشره تحول
من المعدة الى الدماغ . وما عدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه
حيث يقول « ويتماز الشاعر المبقرى (يعنى نفسه ايضا) بذلك
الشره العقلى الذى يجعله راغبا في ان يفكر كل فكر » ولكن ما به
ليس من هذا القبيل وشرهه لا يجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة
كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو ما يعانيه شكوى ولعله من اسباب
ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب المغاريت وقصص السحرة
والردة والجان لما وقع في نفسه من ان هذا حقيق ان يقوى خياله
ويجعل له اجنحة يحلق بها في سماء الشعر وفاته هو وامثاله ان
الخيال يجب ان يطير بجناحين من الحفيفة وان كل كلام ليس
مصدره صحة الادراك وصدق النظر في استشفاف العلاقات لا يكون
الا هراء لا محل له في الادب ومتى كانت حمى الحواس وهليان
العواطف وضعف الروح تعيش في عالم الشعر ؟

وليس في الوضوح وقوة الأداء وحسن البيان ما ينفي العمق
لان العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقا كما يشاء
ولكن مع الوضوح والجلاء اذ ايهما احوج الى النور يراق عليه
ويكشف عنه ما تلمسه اليد وهي تمتد وتمثر به الرجل وهي تخطو

أم ما يقوّم عليه المرء في أغوار الفكر ؟ فكل غموض دليل أما على
المعجز عن الأداء أو التدجيل أو استبهام الفكرة في ذهن صاحبها .
على أنه من افحش الخطأ واضره بالاستعداد واشده افسادا
للغطرة أن يتكلف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة
النسور إذا كان طوقه لا يتجاوز ديبب النمل فان العقل الصغير
إذا التزم حدوده وقام بما يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل
الى غايته من طريقه ولا يجس الحاجة الى قوة العقل الكبير .
وقد ركب شكري هذا الجهل فتكلف ما لا يحسن وأراد أن
يكون شاعرا وكاتباً من الطراز الاول وظن أن الاجتهاد يقنى غناء
الاستعداد فلا هو بلغ اية درجة مما طمع فيه ولا هو أبقي على
خلقه الوداع وقناعته بميسور العيش ومنزل انزله الله وحال
البسه ايها .

ولما كان السقم في الكلام مرده السقم في الدهن فسنبدأ نقدنا
بالدليل الضمني المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب
ببيان الفساد الذي اكتظت به داروينه ونختم الكلام بتقصي سرقاته
وافاراته على شعراء العرب والغرب جميعا .

* * *

لا نقول ان شكري مجنون فنحن ارفق به من أن نصدمه بذلك
واعرف بحاله وبامراض العقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحاء
والتذكير والالاحاح ولكننا نقول ان ذهنه متجه ابدا الى هذا الخاطر
— خاطر الجنون — وان فكرته مائلة ليجو حياته والخسوف منه
منغص عليه كل لذاته وعلااته وانه حتى في طعامه يتوخى ما يظن
أو يقال له أنه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على المقاومة كالسمك
والبيض والمخ واشباه هذه الالوان — وان ذكر هذا اللفظ على مسمع
منه يدخل في روعه أنه هو المعنى به فيمتقع — ولا يخفى أن اتجاه
الذهن له دلالة خاصة وهو قرينه قلما تخطيء اذ لماذا ينصرف المرء

الى خاطر بعينه لا يعدوه في روحاته وغدوانه وفي طعامه وشرابه
ويقظته ومنامه وفي اقواله وكتابه من شعر ونثر - او منظوم
ومنثور على الاصح - ولكن اتجاه الذهن لا يصح أن يؤخذ به وحده
في البت بأن المرء صائر لا محالة الى آخر الطريق . واكثر اهل
الذكاء فضلا عن المعظماء فيهم شيء كثير من الشلوذ والجنون
والعبقرية بسبيل وهما في الحقيقة صنوان وحالتا العقل فيهما
متماثلتان ، فالعبرى ذهنه مكظوظ بالآراء حاقل بالذكريات يتمخض
ايذا عن ادراك علاقات بين الحقائق والاصوات والالوان لا تظن
اليها عقول الاوساط . والمجنون في ذلك نده وقريعه وكلاهما ترجع
مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط في بعض نواحي المخ او
فتورها او قابليتها للتنبيه والتهيج وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا
والجنون عبقرية . وقد فطن الاقدمون الى هذه العلاقة ولحقوها
وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير ان جنون العبقرية منتج يخرج
- كما يقول افلاطون - الشعراء والمخترعين والانبياء اما الجنون
المألوف فهذا عقيم نعيد صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغي ان يتوهم
احد ان العبقرية هي الجنون فليس افحش من هذا الخطا ولا اقل
من ذلك الظن لان العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العسادي
وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع من الاضطراب في التوازن العقلي
والعصبى .

قلنا ان ذهن شكرى متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير
راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل
عليها وبرهتها به كان يكتب جزءا من ديوانه في شهر واحد حتى
كانما هو ماجور على ذلك ومشروط عليه ان يتمه في وقت محدود .
وقد كانت نتيجة ما اصابه من الكلال ان حدثته نفسه باحراقه
بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من
الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج
للناس الجزء تلو الجزء كانما يخشى ان يخب به المرض ويوجف

بعقله الداء فلا يستطيع أن يصدح بالشعر ويسخر بالناس « ١١ »
وماذا أجناء كده ؟ كان كل جزء يصدر فكانما هو حجر وقع في بشر
فلا هو « صمدح » ولو في حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء
عقله .

والى القراء أمثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت » .
حينى الى وجه الحبيب جنون جنون يهيج القلب وهو شجون
وقال من قصيدة الدفين الحى :

لهاج هياج الشر فى الأسر طرفه وادركه حتى الممات جنون
وقال من قصيدة غاية الحب :

وان كنت عندى جئت بالعقل والحجى
وان لم تجيء فالقلب مجنون فاجر
ولكن وجلى منك جن جنونه لها انا من حبي بعسنتك هاجر
وقال فى « طبع الانسان » :

ان بالراء جنونا جاعلا نوبة للشر فيه تحتم
لا ينال البرء من نوبتسه او يذيع الشر منه والالم
وقال من « مرآة الضمائر » وكان له فى البيت ممدى من
لفظ الجنون :

وفى كل وجه من جنون ومن اذى ملامح لا تخفى تناديك بالجهر
اذ من الذى يستطيع ان يدعى ان فى كل وجه ملامح من الجنون
ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرئ غيره سكران ؟
وقال من قصيدة « سلوان الجنون » :

هسى ان تجسن النفس فيكم جنسونها
فلا ذكورة تصبى ولا فكر يخطر
فان جنسون النفس سسمد وراحة
وان عنساء الحبي ذاك التذكر

فانتسلك حتى لست أدري اعاش
على الأرض تسمى أم دفين مفسر
فإن يبلغ الحب الجنسون فلا تلم
أما كل مجنون على الهجر يطر
وقد كان له مندوحة عن تمنى الجنون وكان في وسعه أن يطلب
الموت أو السلوان ولكنه لشقوته يحسب أن المجانين سعداء لا يكره
أحدا منهم خاطر ملح أو وهم جائم ولو أنه سأل طبيبه لعرف منه
أن بعض المجانين يعذبون أنفسهم بما يتخيلون وأنهم كثيرا ما يخلقون
لأنفسهم جحيما من الأوهام يصلونها ،على أنا لا ندري من أين جاءه
ولماذا ظن أن حبيبه سيلومه ويماتيه على الجنون إذا بلغ الحب ذاك
ولكنه معذور على هذه السفسة على كل حال والناس كذلك
معذرون إذا لم يقرءوا نظمه .

وقال من قصيدة « صنم الملاحه » :

بلغ الغرام الى الجنون فلا عتاب ولا نعم

وقال من قصيدة « الحسود » :

وأدركه مس الجنون وانظلمت عليه السماء والنهار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بلغوك » :

بالله ما تفعل لو بلغوك أتى عرتنى جنة من هواك

وكيف لا يذهب لبر والهوى إذا مضت لى أشهر لا أراك

ومن قصيدة « أنا مجنون بحبك » :

أنا مجنون بحبك فازل غلة صبيك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومن العشق جنسون خابل يزدى المرء له وقع التهم

أما الحب جنون وجوى ورجاء واجتسرام ونعم

وقد ترقى فى هذا المعنى من القول بأنه هو مجنون الى نسبة

الجنون الى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدهر ايضا . قال من
قصيدة « جنون الحياة » :

لا تزع فالدهر مجنون كل حي فيه مغبون
جن من حول ومقدرة وكنا ذو الحول مجنون
فتضحك ثم قل ابدا ان هذا الدهر مجنون
دهرنا دار المجانين كل حي فيه مسجون

ومن قصيدة « بعد الحس » :

وكن أنت أعد الحسن فيك فطانة وان جنوني في هواك صواب

ومن قصيدة « وحي الشعر » :

مجنون النعيم والبؤس فيهم وهي تبسو لغيرهم كذكاء
وفسر البيت بقوله « أى عواطف الشعراء تهدى غيرهم ولكن
من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والآلام » فانا أشهد الله والناس
انى لا احس هذا الجنون . ولكنى احسبه سينكر على الشاعرية
لهذا على الأقل . وقال من قصيدة « مشترى الأحلام » :

لو يستحيل المسحيل على الورى

وانال من احسلا ما اطلب

لجننت جنسة قادر متحكم

يرضى على هسنا الآنام ويفض

فالحمد لله الذى لم يحكم فى الناس نزوات جنونه وقال من

قصيدة صوت النذير :

ام ضحكة الرجل المجنون من حزن

لشد ما نال منك البؤس يا رجل

حتسام تنكر حقاً غير مشته

لا يكره الحق الا من به دخل

وهذا تقييد مجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بغضه إياه
راجعا الى اى سبب غير الجنون :

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :

وان بقلبي من جفائك جنـة
فان رام يوما قتلکم ما تائمـا
فاسقى جنـوئى من دمائك جرعة
وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

فيظهر ان حبيبه عرف ذلك معه وأدرك ان جنونه قد يدفعه الى
الاجرام فتحرى البعد عنه فما أشقاه ! جنونه يفرى حبيبه بالهجر
والهجر يزيد في جنونه فأتين المخرج من هذه الحلقة والى اى حال
ينتهى به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم نقلب الا جزءا من ديوانه
لا يبلغ عدد صفحاته السبعين وناهيك بما في الاجزاء الاخرى . ولم
تنقل من شعره الا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه والا فان
هناك إبيانا عديدة تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله :

امشى (احدث نفسى) عن محاسنكم
حتى يخال حديثى لغو نشوان
نشوان ليس له عقل فيسـكته
الحب خمري وليس الخمر من شانى
فاذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون ؟؟ وقوله
وهو ادمى :

واهتف طول الليل باسمك جاهدا
وهاجس هذا الذكر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا في الهتاف ويعترف بأن هذا داء
ملازمه لا عرض زائل وقوله :

(غاب رشد الناس) عن أنفسهم

ضاع منهم تحت أشلاء الرمم

... الخ الخ

وليس الأمر بمقصود على جولان هذا الخاطر في نفسه وملازمته
إياه أبدا وعلى الصباح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب
في الطريق كالسكران والاعتقاد بأن كل الناس مجانين وأن الحياة
نفسها جنت والدهر كذلك وأن لكل شيء جنونا مجنا وأن الزمن
دار المجانين ومستشفى مجاذيب وأن الناس كلهم مرضى كما يقول :

في كل دار من جواه مريض وكل قلب فيه جرح رغيب

كأنما يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا أن الأمر
كما وصف والحال على ما زعم وأن كنا نعلم أن الحب بنى عليه بقاء
النوع ولكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الأمر بمقصود على
ذلك فإن شكري على ما يظهر من كلامه بدا يجرب ما يسمونه هذيان
الحواس وهو - تساهلا في التعبير - مرض يجعل صاحبه يتوهم
مثلا أنه يسمع أصواتا أو يرى أشباحا تختلف وضوحا واستبهاما
حسب درجة الحالة فإذا أصاب العين رات ما لا وجود له في الأذن
سمعت ما لم يصدر فعلا من الأصوات وقد لا يصحبه أي اضطراب
محسوس في القوى المفكرة وإن كان لا شك مع ذلك في أنه اضطراب
محلى في المخ إذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيرا ما يصحب
بعض حالات الجنون « هذيان الأذن » أي اعتقاد المصاب أنه يسمع
أصواتا أو أن أرواحا تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن
بائع كتب في برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تسيير في
الطرقات وأشباح الأدميين والحيوان أيضا وكان يسمع أرواحا

تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسأل بعضها من بعض وقد عولج
من ذلك بوضع « الدود » على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد
الى بعض نواحي المخ .

وقد قال شكرى - اعاده الله من شر ذلك - في الصفحة الثانية
والخمس من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا :

او كنود البعر فضيا له وتر في القلب فضى النغم

« ما رايت القمر الا احسنت كان نواقيس تطن في اذنى . وان
الد الانغام رنة الفضة المجوثة » اهـ

فهذا كلام لا مجال فيه للتاويل والتخريج وهى قاطعة فى انه فى
كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) فى اذنه صوت نواقيس فضية
ولنا ان نلاحظ امورا :

اولها - ان البيت لم يكن يستدعى هذا القول منه لان معناه
مفهوم بدونه

وثانيها - ان ما (يطن) فى اذنه « كلما » رأى ضوء القمر ليس
له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض - بتقريره ان الد الانغام
رنة الفضة المجوثة خصوصا وان رنتها « ليست » الد « الانغام »
وان كانت « اخلص » الاصوات واصفاها والفرق كبير بين صفاء
الصوت وبين حلاوة النغم . نعم ان الصفاء من عوامل الحلاوة فى
النغم ولكن خلوص الرنة من الاكدار - مع التسامح فى هذا الرنة
نغمة - لا يمكن ان يعد « الد » الانغام .

وثالثها - انه كلما رأى « ضوء القمر » طن فى اذنه هذا الصوت
ذو الرنين ويعرف الخاصة واهل الاطلاع والملاحظة ان « ضوء
القمر » مقرون فى اذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهديان كما
يدل على ذلك استعمال هذه العبارة فى لغاتها ورابعها انه ان كان

صادقا فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتروك المرء في الذهاب الى انها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا ان نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب في طائفة من الاعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول في هذا الباب ولكننا قد اطلنا وان كان التحليل ممتعا مغريا بالاسباب والافاضة ولذلك نجتزئ بملاحظة اخرى وهي ان لشكري كتابين غير دواوينه احدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا انه وصفه بأنه « أحلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهي كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتلدي فيها كتابا روسيا في رواية اسمها « هل كان مجنونا » وموضوع قصة شكري ان حلاقا ذبح زيونا له لان رأس الزبون تشبه رأس الخروف فأغراه هذا الشبه بذبحه بموساه وهي في الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية على لسان زبائن الحلاق .

وقد سبق لنا ان نبهنا شكري الى ما في شعره من دلائل الاضطراب في جهازه العصبي وأشرنا عليه بالانصراف من كل تأليف أو نظم ليفوز بالراحة اللازمة له أولا ولأن جهوده عقيدة وتمبسه ضائع ثانيا ولم تكن أمامنا في ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلمله الآن وقد رأى كثرتها وتوافرها - وهي كثرة مروعة - يرجع الى اين ويرفض ما ارتضينا له وما هو خليك أن يحمده الناس منه فلا يحاول أن يقالب مشيئة الطبيعة التي لا تخلق الا بكم الا وهي قادرة على الرامه اليكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق .

الجزء الثاني

أدب الضعف

الادعياء في كل بلد كثيرون وفي كل قطر كالذباب يعيشون عيالا على الادب وحميلة على اهله وذويه ولكنهم فيما نعرف لا يعدون الطنين في غير هذا الفطر ولا يعدو جمهور الناس معهم أن يلحظوهم كما يلحظ احدنا المناكب ناشجة لها بيتا بين جدارين فيقول لخدمه او ربة بيته ازيلي هذا واتى عليه بالكنسة ثم لا يقولها حتى ينسى امره ويذهل عن خبره . اما في مصر فالحال على خلاف ذلك والامر على عكسه وتقيضه . يظهر الدعى فيستولى على الميدان ويخسر الناس له سجدا الى الاذقان ويباهون به الامم والازمان فان سالتهم في ذلك وعلمته وماذا بهرهم منه وكيف كان على حد تقصر عنه قوى البشر ومنتهيا الى غاية لا يطمح اليها حتى بالفكر احوالوا وتهربوا وفتحوا ابوابا من التعسف لا تستند الى اصل ولا يعتمد فيها على عقل وظنوا بك الفند وجروا في اوهامهم الى آخر الامد كأنما التوق الى ان تقر الامور قرارها وتأخذ الاشياء اقدارها شيء ليس في سوس العقل ولا في طباع النفس . وليس الامر بالهين الذي تتانى مداواته ويستيسر علاج ما يعرض في الآراء منه فان الداء عيساء والبلاء عظيم والمصائب كبير . وأصل الداء ومعظم الآفة والذي صار حجازا بين القوم وبين التأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مرض في عقولهم شديد الخفاء أورثهم اياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا لا يملكون ان يصغوا لما يقال لهم ولا ان

يفتحوا للذي تبين أعينهم أو ياخذوا لأنفسهم بالتي هي أملا لا يديهم
وأعود بالحظ عليهم حتى صاروا من كل أمر في عمياء قصارا هم أن
يكرروا الفاظا لا يعرفون لشيء منها تفسيرا ويرددوا ضروب كلام
أن سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبينا . وما لهؤلاء تكتب ولا من
أجلهم نتكلف أن تكوي عرق الباطل ونخرس السنة الكذب والتدجيل
وننقض بناء المنكرات والشناعات التي أقامها نفر من الأدعياء نشأوا
في غفلة الزمن فإن من المستحيل أن نرجع بهم إلى سنن التفكير
والبحث والتقصي وحب الاستطلاع ولكننا نكتب ونشرح وننصب
الميزان لن يمس آله رزق عينيه ليفتحهما على الأشياء ويجعلهما
فيها لا يغمضهما دونها وأوتى العقل ليتصرف به في الأمور ويتبين
النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر في ذلك
حسه ولا يغالط في الحقائق نفسه ولا يحب أن يستسقى إلا من
المصب أو يأخذ إلا من المعدن مؤثرة الغيبة والهزيمة والفشل على
أحواله الأشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها وتقلها عن
طباعها وقلب الفطر إلى أضدادها - لهؤلاء الذين هم معقد الأمل
ومناطق الرجاء تفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها
ونمدها ونرفع لسيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التي
تكون أضوا لها واكتشف عنها صابرين على طول تأملهم مقتبطين بعدم
فناعتهم إلا بالاقتناع . إذ ما خير مقلد في ظاهر عالم وشاك في صورة
مستبين ؟ ؟

وليس في مصر شيء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن
الجرى مع الأوهام والذهاب إلى أشنع الشناعات وأساو المنكرات
ما عرض لهم في الأدب حتى صاروا إذا عمد عمد منهم إلى الألفاظ
وجعل يتبع بعضها بعضا من غير أن يتوخى في تنسيقها معنى فقد
صنع ما يلزم به كاتب وشاعرا ومؤلفا يفسن الزمان بمثله ويعبى
الأمم مكان نده . وفساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج إلى
تنبيه أو أن يتجنس أحد منا إقامة الحججة عليه والتدليل مع التبسط

في الايضاح وتحري البساطة في سوق المبادئ وتفصيل الاصول
وما ندرى غدا بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة اذا راونا ندلى
بالحجة والبرهان على ما لا حاجة به الى الصفة والتبيان وما صار
دستورا معهم لهم به عن ايضاح الاصول والبدائة غنيان ؟ انفلا
يعلمون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف اللعب وهي تحسبها ادوات
الكر والطعان ؟ بل ولا يعرفون ما كنا نستطيعه لولا موت القلوب
وعنى الميون وامواج الازهان .

ولماذا لا يرون من اعجب العجب ذلك الذي عليه الادعياء
المقلدون في امر الاديب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لا تجد في
الامر الاعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة ثم هو مع ذلك لا يرى
الذي تريه ولا يهتدي لما تهديه . بل ماذا عسى يكون رأى الغربيين اذا
اطلعوا على هذه المنكرات الشنيعة التي تتمخض عنها الطبايع
المسوخة والازهان المنتكسة ؟ ان الجيد في لغة جيد في مساوها
والادب شيء لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان لان مرده الى اصول
الحياة العامة لا الى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك
الفث غث في كل لغة في اى قالب صيبنه وسببته وبأى لسان
نطقته .

وقد لقينا من التشجيع ما يغرينا بالاسترسال ووجدنا من
الاقبال ما قوى الامال في صلاح الحال وهاكم صنما آخر من
معبودات الضئال نهدمه ونلقى به بين الاطلال .

ترجمة المنفلوطى

عنى السيد المنفلوطى بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الاول من نظراته وذيلها بتوقيع من لا يبالي دسها عليه فى كتاباته ونحن لا يعنيننا هذا الامر الا من حيث دلالاته على طريقة السيد فى الاحتيل على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وامثاله على تأثير الالتاب والمناصب فى عقول البسطاء كلما ارادوا ان يزقوا الى الناس عرائس افكارهم او يشيعوا الى قبور صدورهم اموات خيالهم . واذا كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد ان يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لاثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنيننا من السيد ما خطه براعه الرشيق واملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق ان يكون على ظاهر الامر مقدما على سواء وحريا بان يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم تتبع ذلك جملة من القول فى « بنات » عقله ثم نأتى على ذكر روياته وقصصه فى اثر هذا وذاك على اننا ربما مطننا عنان الكلام على الاخرة قبل الاوان توفية للحقوق وبياننا للفروق وكشفنا عن الحال وايقافا للقارىء على مبلغ سعة المجال .

السيد مصطفى لطفى المنفلوطى رجل شريف جاء الى هذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة واربعين عاما من ابوين كريمين كرما يشبه ان اولهما ... ولا ندرى ايهما يعنى ولكنه احدهما على كل

حال - ينتهى تسببه الى الحسين بن على جد كل مسلم ومسلمة
ومنافس آدم بكثرة النسل « تفاقم » اللرية . وثانيهما الى اسرة
جوريجى التركية « المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤتل » .

ولم ير السيد زاده الله شرفا ورفعة لسوء حظه النقد ان يزيد
على هذا فى بيان نسبه الا اشياء ظاهرة لا تحتاج الى تدوين ولا
تحتل الايضاح والتبيين كقوله انه « ولد فى متغلو ط من مدن الوجه
القبلى فى جنوب مصر » وان أسرته هناك « مشهورة بالشرف
والتقوى والعلم والفضل » فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته
تهدى الى معرفة ما هناك ولكننا نحسبه خشى ان يفضل القارىء
ويختلط عليه الامر فيتوهمه مقدوفا به اليانا من المربخ - والحق
ان له العلى فى خوفه هذا اذ ليس فى كتابته ما يدل على انه مثل
ابناء آدم احساسا بالحياة وفهما لها وجريا على سنتها واداء
لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود الى ترجمته
فنقول وليته . اذ عنى بهذه التفاصيل البديهة كان قد ساق اليانا
ما هو حقيق ان يعين الناقد على تقدير اثر العوامل الوراثية فى
تكوين اخلاقه النادرة التى يصفها بأنها « انقباض من الناس ووحشة
يحسبها الرأى صلفا وكبرا وما هى بالصلف ولكنها الرزاة والوقار
والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة
من لا تعجبه اخلاقه ولا تجمل فى نظره أطواره . وعفة حتى من مديده
الى أبويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وادب وحياء وحلم
يظنه الظان مجزا وضعفا فاذا غضب وقليل ما يفعل فهو الليث قوة
وشجاعة وإيمان قوى كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب
باب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان فى اسبوع واحد
فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمة ثم
ماتت زوجته بعد ذلك فجلس الى اصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها
كانما المرزوء سواء وليس أحقر فى نظره من مدح المادحين ولا أحقر
فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس أبغض اليه من الكذب

وكثيرا ما كنت اسمعه (١) يقول « لا طلعت على شمس ذلك اليوم
الذى يرضى فيه عنى الجاهل او يعجب برأى البليد الى آخر ما لا
يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .
ولكننا بشنا لتقصيره في ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة
ومبلغ الاكتساب في هذه الفضائل وفي كل هذا الادب الجرم الذى
جعلته - كما يقول - الكاتب الفريد الذى يحافظ على اسلوبه
البليغ في جميع حالاته وشئونه سواء في ذلك المعانى المطروقة
لكتاب العربية الاولى او التى لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها
اسلوبا مما يدل على ان السليقة العربية ملكة من ملكاته لا عارية
من عواريه .

وليس في ان يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببلعة ممن هو
كالسيد الشريف المسبب لا يحدث الا عن نفسه ولا يصدر فيما
يكتب عن سوى يومه وامسه . ولكن ما هكذا يكتب الناس عن
انفسهم ويتقدمون الى قرائهم بتراجهم ووصف آباءهم . وما للقراء
ولاجدادك الذين لم تزدنا بهم علما فيشفع لك ما اقدت في سماجة
ما كتبت ولقد قرانا لجيته شاعر الالمان الضخم كتابا في تاريخ حياته
يقع في اكثر من ستمائة صفحة ولا نذكر انه اورد اسم ابيه حتى
ولا في سياقة الحديث دع عنك خلع حلل الثناء على اجداده . ولقد
جعل وكده ان يشرح لقارنه ادوار نموه العقلى وكيف تكوتت اخلاقه
ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتات ذهنه وهو ما يعنى قراء
التراجم . اما الاجداد والاباء فما دام الكاتب لا ينوى ان يذكر ولا
يستطيع ان يعرف عنهم اكثر من الاسماء فخير له والناس ان يسدل
عليهم أستار الخفاء حتى لا يجمع الى الجهل او العجز تقيصة
المباهاة الكاذبة او عيب الادعاء .

على انه ان فاتنا هذا الذى كنا نصب ان لا تخلو منه الترجمة
ولم نعتض منه الا ما هو منشوء ثقيل على النفس فان فيما كتب
السيد الشريف الجليل المصري التركي الحسينى الجورجى

المنفلوطى الكفاية فانه اعزه الله لم يألوا كشفًا عن آرائه واخلاقه
وفضائله ومحامده واسرار نفسه ودخائل صدره وهو اجس خاطره
ولم يضمن على قارئه بوصف احواله وكيف يكتب وكيف يأكل
ويشرب ويلهو ويلعب ولاى شيء يطرب ومم يقضب وماذا يمقت
وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه
في غنى عما يبدىء فيه في ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يثبتها
لنفسه حتى نسي أنها له فانتحل غيرها من المقالات !!

ويا لها من شجاعة لا تجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه
بالصدق فيما نحلها من الشيم ! فهل تعرف أيها القارئ من أى
ضروب الشجاعة هذه فان لها لانواعا وضروبا ؟ ليست شجاعة
الايمان ولا شجاعة بيعتها احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا
شجاعة الطيش وانما هى شجاعة . . الطعام !! نعم والموائد الممدودة
والاخونة المنصوبة . . وانك أيها القارئ اذ تنكر هذا القول علينا
وتمط شفتيك وتزوى ما به عينيكَ لتدل بذلك على افحش الجهل
واقضحه بأسرار فعل الطعام . ولكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى
ان يخشى السيد الشريف الخسيس بالنسيب بعد ان يجمع حول
مائدته الاسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة من اصحاب بعض
الورقات القدرة ويملا لهم بطونهم كنت حقيقا ان تفهم ما نريد
من شجاعة الطعام . اترك لم تسمع بالمثل العامى القائل « اطعم
القم تستحي العين » ؟ وماذا صنع السيد اكثر من الجرى على
السنن العامية في كل شيء ؟ في كتابته وفي معاشرته وفي اتقائه الالسن
- وهذا هو السر - فاعلمه - في انك لا تسمع به في هذه الورقات
ولا تراها تلهج به مادحة ولا قاذحة .

ومن ظريف ما ترويه في هذا المقام ان السيد سمع بعزمنا على
اخراج هذا الكتاب فجاء يدعونا الى مائدته وأرسل يلح علينا في
« تشريفه » فلم ينقذنا من الحاحه ولم ينجنا من موقف القدر
ونكران جميل مائدته الا المرض ! فما احسن المصائب في بعض
الاحيان !

الحلاوة والنعومة والأنوثة

وبعد فماذا في كتابات المنفلوطي مما يستحق أن يعد من أجله كاتب و أديبا إلا اذا كان الأدب كله عبثا في عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيخونا الماثقين يقول : « ان في أسلوبه حلاوة » ولو أنه قال « نعومة » لكان أقرب الى الصواب ولو قال « انوثة » لأصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والاحاجي فلنفسره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذاك الذي لا نرجو منه خيرا . قال مهيار :

فيلوب قلل دمي مقتلى بما نظرت واعف عن قاتلي
هنيئا لحبك - ذات الوشاح دم ظل فيسه بلا عاقل
وحبي ذكرك حتى لثمنت مسلكه من فم العاذل

هذا مثال للنعومة - كلام مصقول لين الانحدار تستطيع أن تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه اذا نشرته وتأملت ماتحاشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر أن وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما في الأمر ان صاحبه أراد القول في هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان الشاعر قد أعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ الى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط في الرقة يكسب الجمال ويغنى عن الاحساس به فقلب كل شيء وحمل عينه

ذنب النظر الى الحسن ودعا الله ان يبوء المقتول بالقاتل تناهيا في
اللين وذهابا الى اقصى المدى في الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولا
دم مظلوم بغير عاقل وانما هو التطري والرخاوة ثم ذهب يقول انه
لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو
من سخافات التطري ويكفى لادراك مبلغ السخافة ان تتصور مثل
هذا المنظر حادثا واقعا . وامثال هذا كثير في غزل المقلدين والمباشرين
لانهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا الى الصقل وضحوا في سبيله
الرجولة والعقل . ومهيار بعد من الفحول او هو على آثارهم ماض
وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الادراك للفسوق بين
مذهب العرب في الشعر ومذهب الآريين - او الفرس فقد كانوا
لا يعرفون الا عربيا وعجميا . يدل على ذلك قوله يصف شعره :

حلى من المعدن الصريح اذا غشى تجار الاشعار ما جلبوا

يشكرها الفرس في مديحك للمعنى وترضى لسانها العرب

فكانه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ واكبارهم شأنه وذهاب
غيرهم الى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى في حلاوته وعدوبته
كقوله :

اذكسرونا ذكرنا عهدكمو رب ذكرى قرئت من نرها

وقوله :

آه على الرقة في خسودها او انها تسرى الى اكبادها

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع في هذا فما ظنك بالمتأخرين
والمباشرين الذين افتنوا في العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيل
للانسان انهم كانوا يشبهون ليروا ايهم اعظم تطليقا للعقل وايسانا
بالمستحيل ونسيانا لاحكام الحياة . اما الحلاوة فتجدها في مثل
قول الشريف الرضى :

انت النعيم للقلب والمذاب له فما امرك في قلبى واحسائه

وقوله من القصيدة عينها :

عندي رسائل شوق لست أذكرها

لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

وليس يمنعك أن تتذوقها من البيت الأول ذكر المראה فإنها هنا اخف ما تكون وليست كل القصيدة من هذه الطبقة ولعل التمثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربي أجدي وانفع في تبين المراد ولكننا لا نحب أن يفهم أحد أننا قوم افترنا بالغرب حتى ذهلنا عن محاسن العرب ولا أن يظن بنا الإعلان عن النفس وإن كان لا غشاضة في ذلك ما دمنا ندمو إلى حق وقولة صدق .

ومرجع هذه الحلاوة إلى ما ترك من التنوع في الاطراد وإلى احساس الشاعر باللذاعة والحسن احساسا هو مزيج من الإعجاب والطلب . خذ البيت الأول مثلا « أنت النعيم » وتأمل اطراد العاطفة في مصراعيه وتوازن قوتها في شطريه وكيف أنه مع هذا الاطراد والاستواء يفجؤك بالتنوع من حيث لا تصدمك . ويريك وقعين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبارة موزونة على قدر الاحساس لا أكثر ولا أقل ولو أنه كان قال « أنت النعيم لقلبي والجحيم له .. فما أمرك .. الخ » لأحسنت التناظر واختلاف القوة في الشطرين ولما استعذبت منه قوله « فما أمرك الخ » بهذا لفظة الجحيم . وتأمل في عقب هذا قول المسكين شكري يصف جميلا ويبالغ في حسنه :

كانما صلتكم كيما يحبكمو

يا فتنة الحسن قد جار الهوى فينا

يعنى الله في صدر البيت - فأتك تحسن إذ تنتقل من الشطر الأول إلى الثاني كأنما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا اطراد ولا تساوق وكأنما صادف ماء البيت انحدارا مباغتاً وكأنك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثاني وانتظر تحريره الدقة في العبارة عن مقصوده تحريرا أكسب البيت الاستواء والاطراد وتأمل كيف عبر

بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون اقوى الالفاظ واشدها
من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها مما
لم يكن يعجز الشريف عن حشره في البيت لو كان مثلهم فساد ذوق
وضعف طبع وسليقة .

ولست تأخذ من البيت أكثر من العبارة عن الإعجاب وهو من
أخف مراتب الحب وأولها ولا أكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة
ومن اشتهاه التقبيل اشتهاه لا ينبو مع ذلك في زمام الإرادة
فالتناسب تام بين أنواع المعاني والاحساسات المتنوعة التي ضمنها
البيت - من إعجاب واحتشام واشتهاء والتشاكل كامل والاستواء
بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلية وسلامة الذوق وحسن
المعنى في الكناية عنها بأنها رسالة لا تبلغ إلا للفم ومراعاة ذلك
وامتناعه عن ذكرها عن بعد .

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع
فقارن قصيدة الشريف الرضى التي يقول في مطلعها :

يا ليلة السفح إلا عدت ثانية سقى زمناك هطال من الديم
بقصيدة الطفرائي التي احتذاه فيها وترسم مواقع أقدامه
وليس سمنا إيراد القصيدتين ولكننا نجتزئ بذكر البيت من
قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطفرائي مجازاة له . يقول
الشريف :

فمرت منها بلا رقيب ولا حنر
على الذي نام عن ليلى ولم أتم
فياخذ الطفرائي ويخرج صاحبيه أن كان لهما وجود :
يا صاحبي اعينسني على كلفى
بمن تناوم عن ليلى ولم أتم
ويقول الشريف بصف ليلى معها :
وأمست الريح كالغري تجاذبنا
على الكتيب فضول الربط واللم

يشى بنا الطيب احيسانا وآوة

يفيئنا البرق مجتازا على اضم

فيسطر عليه الطفرائي ويصوغهما في أربعة آيات مرذولة :

بتنا ويات الصبا وهنا يفازلنا	وفرشنا الرمل وشته يدالديم
والليل يكتم سرى والصبا كلف	بنشر ما كاد تطويه يد الظلم
ياتفحة الريح باتت بين ارحلنا	بالجزع تسلك بين العذر واللم
نهيت طيبا واغرقت الوشاة بنا	ياحبنا انت لو لم تقتدى بهم

ويقول الشريف :

واكنم الصبح عنها وهي غافلة

حتى تكلم عصفور على علم

فيضمه الطفرائي في هذا البيت المتحوس :

وغاب عنا غراب اليبين ليلتنا	فنا ب عنه عصفير على علم
-----------------------------	-------------------------

ويقول الشريف :

يولع الطل بردينا وقد نسمت	روحة الفجر بين الضال والسلم
---------------------------	-----------------------------

فيمسخه الطفرائي هكذا :

واذنتنا بقرب الفجر ناشئة	باتت تعرش بين الضال والسلم
--------------------------	----------------------------

ويقول الشريف :

بتنا ضجيعين في ثوبى هوى وتقى	يفنا الشوق من فرع الى قدم
------------------------------	---------------------------

فيا بى الا ان يعف عفته ويجهى بهذا البيت المنشور السخيف :

ورق لي قلبه القاسى ومكننى	مما اريد فلم آثم ولم ألم
---------------------------	--------------------------

ويقول الشريف في غير هذه القصيدة :

انت النعيم لقلبي والمصاب له	فما امرك في قلبي واحلاله
-----------------------------	--------------------------

فلا يرى الطفرائي ان يتركه في قصيدته دون مسخ :

طاب الهوى في الجوى حتى انست به

فهسو السرارة يطو طعمها بقمى

فيخلط ويحسب الشريف الى هذا قصد . ويقول الشريف :

ولا استجد فؤادى في الزمان هوى

الا ذكرت هوى ايامنا القدم

والذكرى طبيعية ولكن نساد ذوق القلق الطفرائي يابى له
الوقوف عند حد الطبيعة :

تريد أن استجد الحب بعدهم والحب وقف على احبابنا القدم
الخ الخ

وستان بين كل بيت ونظيره .

كلام الشريف مستقيم المعنى والاداء واييات الطفرائي لا يسبقها
المراء الا بعناء . والفرق بين الكلامين اوضح من ان يحتاج الى جلاء .
ولعل القارئ قد رأى مما أودرنا أن الحلوة لا تتفق مع العبث
والتكلف ولا مع اضطرار العاطفة ووقدتها .

ولست بواحد شيئا من هذه الحلوة في كلام المنفلوطى سواء
في ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع
العبارة عنها وقد أسلفنا أن وصف أسلوبه بالنمومة أقرب الى
الصواب ولكنه ليس كل الصواب لأنه متجاوز ذلك ذاهب الى أدنى
منه وليس أدنى من ذلك إلا الانوثة وهى أخط وأضر ما يصيب الأدب
ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسبقونها
ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم أياها أن يتسجموه ويفروه بالكاد
في إبراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولا اعصف .

قال المنفلوطى في مقدمة مبراته :

« الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بئس مثلى أن
يمحو شيئا من يؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم
هذه العبرات عليهم يجدون في بكائي عليهم تمزية وسوى . »

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا
القلب الذى شغل عن مطالب الحياة بالدق مطفا على المساكين
أمثاله . ولو شاء لقال أن الناس جميعا كذلك أن كان يريد أن يذهب
الى هذا المعنى لأن كل امرئ طالب محروم . ولكن وظيفة المراء في

الحياة ليست أن يكون ندابة لما لهذا خلق بل وظيفته أن يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لأن الأصل في الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهي قائمة على ذلك ولا سبيل إليها بدونه ، بل هي تنتفى إذا امتنع وبطل .

وهذا شيء يعرفه كل أحد ويحسه كل حي . وقد فطن إليه الأقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمي على ذلك والبيانه في مظاهره ومن آيات هذه الفطنة — فطنة عميقة مستولية على النفس — أنهم قالوا أن في الوجود قوتين متنازعتين ابدا وقوة الشر التي تطفئ بالليل وتجعل في الرعد وتقدس بالصوامق وتبتلى بالجذب والمحل والاباء والارزاء والفناء وما يدخل في ذلك ويتفرغ منه ، وقوة الخير التي تسح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة إلى آخر هذه المعاني وقد رمز الفرس للأولى وللثانية بأرمز .

ومثل هذا واضح في جميع الأديان وأن تغيرت الأسماء وتبدلت النعوت وما إبليس أن فكرت إلا اسم آخر لاهومان والارمز لقوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ في خرافات العجائز وقصصهن حتى لاهدنا هذا وفي أوهام العامة التي تعزو الامراض إلى فعل الشياطين وفي خوف الاطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير في دياجييه . ولماذا يفرع الفارع من الظلمة ويتهيب القفار والفساب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ اليس هذا اثرا من الاعتقاد الأول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحياة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذي يحسه الاطفال والعامة والذي فطن اليه الاقدمون السذج بفرائزهم وفطرتهم السليمة لا يدركه المنفلوطي المسكين الذي يحسب أن ليس له من عمل في الدنيا إلا البكاء على الأشقياء كأنما خلق الرجل اضعف من الدودة الجواله في جوف الثرى .

ومضى قائل يقول : ان هذا منه فرط حب للانسانية وهي فضيلة لا يقبلها رذيلة ان صاحبها بالغ وغلا في الامر لانه انما يفرق في التزعم ليعمد المرمى ويجاوز القصد في التصوير ليكون ابلغ في التأثير ويتناهى في الدعوى استندناء للفاية القصوى .

هكذا يصنعون اذا ارادوا التفضيل او الاعتذار لانفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج الى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لان الانتصاف منها لا يتأتى الا باستعانة العقل والعلم عليها . ولكن لا بأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه الى لغة العلم ونظرنا اليه في ضوء الاستقراء الحديث .

ما هي اخلاق المنفلوطى ؟ هي بالفاظه — او ان جادل فيما ارتضى ان يوصف به من الالفاظ — اتقباض عن الناس ووحشة — هفة حتى من مد يده الى ابويه — كرم في الخلق طالما كان سببا في وصول الاذى اليه — حلم يظنه الظان مجرا وضعفا — صمت طويل بحسبه الناظر هيا — ما رؤى يوما من الايام ملما بما يفسد عليه دينه او مروءته صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويظير رشد الحليم (١) مات له طفلان في اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما — وليس احقر في نظره من المادحين له ولا اصغر في نفسه من انتقاد المنتقدين عليه — لو ان الناس جميعا اجتمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما نناه ذلك منها ولو انهم اتفقوا على رأى مناقض لرايه لما نال ذلك من عقيدته ليس ابغض اليه من الكذب — يحب حتى العتاب المر والتفريع المؤلم ما دام المتكلم صادقا — يطلب من الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض — ان كان في اخلاقه ماخذ ففي هذا الخلق خلق النفرة من

(١) قال لسنج الشاعر الناقد الانساني : من لا يفقد عقله امام بعض الحوادث وليس له عقل يفقده .

الناس والمعجز من احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم - وطنى بتهالك
وجدا فى حب وطنه ويدرى الدمع حزنا عليه . . الخ .

ولا تنسى انه جرىء جراءة معدومة النظر فى التقحم على حياة
الناس بهذه السموت الغالية وانه محب مفرط الحب للانسانية -
فيلانثروبيست - وان أسرته مشهورة بالتقوى وان أبشاه يموتون
فى غير السن التى يكون فيها الاهمال والجهل سبب الوفاة المباشر
فى الاغلب والاعم .

* * *

فكيف تصف هذه الاخلاق ايها القارىء ؟ اما أن تكون مصدتها
فننظر فى دلالتها او مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رايك .

اخلاق نادرة ؟ نعم ليس اندر منها مجتمعة وان اتفقت للناس
متفرقة ! ولكن الامر اكبر من ذلك وابعد مدى وأعمق . هالك دلالة
هذه الاخلاق الرائعة النادرة فى نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى فى الاغلب من امراض الحالة التشنجية وكان
الفرور وكثير من الخصائص البسيطة او المركبة توجد فى حالة غير
عادية من النمو اذا كان الجهاز العصبى غير سليم فليس من المدهش
ان يكون البخل من اعضاء ما يسمى (فيرى) اسرة الامراض
العصبية . وحب الانسانية - فيلانثروبي - نفسه مما يجرى هذا
المجرى وقد كان (هوارد) مصلح السجون جبارا فى بيته وكان له
ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الانانية ايضا وشرح هذه الحقائق
فيما اسلفنا عليه القول على الارادة . وذلك أن بعض مراكز المخ -
واحدا او اكثر - تكون قاصرة عن تلقى المؤثرات او الاجابة عليها
فتسود فى حيز الادراك طوائف معينة من الآراء او تصير الغلبة
لنزعات معينة مستقلة عن الادراك . وهناك قوم - كما يقول المثل
- لا يصفون الى داعى العقل ولا يحسون الا انفسهم ومصالحتهم .
وآخرون يبلغ من تضحياتهم بالنفس وانكارهم الذات ان يخرجوا -

بقدر مبرر معقول - عن كل متعمهم وكل ما ملكت أيمانهم لفائدة
جيرانهم مثلا . وكلا الفريقين من مرضى الاعصاب كالمعمودين أو
المصابين بالتشنج . ويقال على العموم ان الاعتقادات الحادة القوية
تصاحب الضعف أو المرض أو الاضطراب العصبي وعلى العكس
من ذلك ترى الموفور الصحة متسامحا بالضرورة متعدد جوانب
الرأى » .

فما قول المحتج للمنفلوطى فى هذه الكلمة التى كأنها كتبها
صاحبها لما نحن فى صدده وإيهما خير فيما يرى لصاحبه ؟ أن تؤمن
بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلل الغريبة فيلزمه
حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين فى أعصابهم
أم نقول كذب فيما ادعاه لنفسه وإن ما به ليس إثارا وحبا للإنسانية
متجاوزا به حدود القصد والاعتدال بل انوثة يتوخاها فى الكتابة
وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم
واستصغار لأحلامهم واستهانة بقولهم ؟

لسنا نتشبهت بأحد الحكمين فايختر القسارىء لهذا الكاتب
أخفهما وأهونهما فى رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتيجة بعد
واحدة .

« الأشقياء فى الدنيا كثير وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو
شيئا من بؤسهم وشقائهم » .

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ما أحلكها وأحساس بالعجز المطلق
والقصور التام . وما أبعد هذا من الكتابة الطبيعية المعقولة التى
تفشى النفس أحيانا ويكون مردها الى ما يلقاه المرء من الخطوب فى
حياته أو فى علاقاته مع أسرته أو بيئته وأوساطه والتى لا تمنع أن
يكون الإنسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر الى الأمور
هناك الوزن لأقدارها . نعم من الطبيعي أن يكتئب مثلاً من يحتسب
طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويأس الرشد من سماته أو من
يرى نفسه مشبوذا من الناس لفقره أو ضعة قومية فى أبيه أو من

يعنى بالفشل فى بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هذه السوداء اليائسة التى تصور لصاحبها الحياة كأنها مستشفى مجزة ودار أيامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم - أى تحليل لها من الأحوال التى تكتنفه هو أو مسواه ؟ وأى باعث عليها غير عدم التلاؤم بين المرء والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذلك فتفشل ولا يخرج الأمر من ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب فى المفتاح كان يكون مكسورا أو أن تكون أنبويته مسدودة أو أن تكون أسنانه بالية واما أن يكون الذنب ذنب القفل كان يكون لسانه قد سقط فى جوفه أو أن يكون شيء فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل أو أن يكون الصدا عطله وأنت فى كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن هناك احتمالا ثالثا وهو أن تنحرف بأنبوبة المفتاح عن حديدة القفل أو أن تديره فيه مقلوبا أو أن لا تبلغ بأسنانه اللسان ولا يكون العيب فى هذه المرة راجعا الى القفل أو المفتاح بل الى الخطأ فى عملية الفتح .

أهينى غضبت . فالأمر فى هذه الحالة لا يعدو احد فرضين : أن يثير غضبى رجل مثلا بعمل مسيء فإذا كان احساسى مناسباً لدرجة الإساءة ومتكافئا معها كان ذلك منى طبيعيا ولكن لنفرض أن الأمر جاوز المعقول وأن الغضب هاجه ما ليس فيه إساءة وهو الفرض الآخر فنعود الى مثال المفتاح والقفل ونقول اما أن تكون الظواهر الخداعة أو الاتباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد الى الإساءة وتعمد الإيذاء فيشير فى نفسى ما يحيط بى مثل ما يشيره الإيذاء لو كان واقعا ويكون عدم التلاؤم بين الاحساس والعمل راجعا الى الوسط والعيب عيب القفل - أو يكون العمل فى ذاته غير مقصود به الا الخير كان يرتب لك خادمك أوراقك فى غيابك ولكنك لما لقيت فى يومك من النصب أو لعسر هضم تعاتيه نخرج عن طورك ونبليغ غضبك مبالغا لا يتناسب مع الظروف - أى لا يلائمها وفى هذه الحالة يكون عدم التناسب بين الاحساس والظروف مرجعه الى

علة فيك والعيب عيب المفتاح اذ كان قد هاجك مالا يبيع فاذا أصبحت في اليوم التالي وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهذا فائرك وبدالك تهورك فقد أعدت التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن اذا ظل غضبك في الصباح كما كان في المساء وطردت الخادم فان المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح عجزا عن إعادة التوازن بينهما يدل على ان « عملية » الموازنة او الملاءمة مضطربة .

وهذان المثالان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتفاء ذلك راجعا الى علة عضوية او الى ان للبيئة احوالا ليس لها المرء بكفاءة او هو يجهلها او لا يعرفها معرفتها وفي كلتا هاتين الحالتين يكون العيب في القفل او المفتاح ولكن اذا كانت البيئة ليس فيها من الأحوال الا ما يستطيع ان يكافحه الرجل العادى وكان المرء قادرا على الواجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا ان يلائم بين نفسه وبينها فان الفشل في هذه الحالة لا يكون مرجعه الى عدم كفاية او عيب في هذا العامل او ذاك بل الى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه أبدا ثلاثة مظاهر : اضطراب الأجهزة العصبية والاضطراب في السلوك والاضطراب في الإدراك ويدخل في هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهى اشياء على اوضح ما تكون في قصص المنفلوطى كما سترى فيما يلى .

العبرات « قصة البستم »

وتعود بعد هذا الايضاح الى ما كنا بداناه من الكلام على عبراته فنقول انها على نوعين : منها طائفة مترجمة عن امثلة الضمفاء الداهيين مذهب التصنع والافراط في الرقة والأتونة والباقي موضوع وهو في كليهما ملفق مستحيل التلفيقات - حتى فيما هو مترجم منها يابى له ذهنه المنتكس الا ان يغير ويبدل تبديلا كبيرا الدلالة . وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته في كل قصة تقريبا ينما هو جالس في مكتبه الذي كانا صار يلتقى كل صوت ولاقط كل نبرة وموجة اثيرة اذا به يسمع انينا او حنينا او صوتا خافتا او توجعا او زفيرا او نهيقا او شيئا من هذا القبيل فيبطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شامت له تلفيقات اوهامه ومنكرات احلامه - من العمر ملقى بتوجع على سريرا او حصير فيذهب اليه ولا يزال به حتى يقص عليه أمره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر اتونته ثم يموت الفتى - وهو ما لا بد منه في كل حكايات المنفلوطى فما أعظم شؤمه على ابطاله - فيفسله ويلغى في الاكفان ويحمله الى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه ألتى كانا لها « زر » في تضاعيف ليابه يضغط عليه فتتحدر ونسيل وان كان لم يبك على طفليه اللذين ماتا في اسبوع واحد !!

فبالله ما لهذا الحانوتى الندابة وللادب الذى هو حياة الأمم
وباعث القوة فيها وناث الحرارة فى عروقها وحافزها الى اجل
المساعى ؟ لقد كان المنفلوطى يستطيع ان يتعظ بمصر ابطاله المخشيين
— ان جاز الجمع بين النعتين — وبموتهم فى شرح الشباب ومبعة العمر
وكان فى وسع قرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهم ومرض
نفوسهم ولكن لكل كاتب قراءا على شاكلته منسوجين على منواله
وان اخوف ما نخاف على هذه الأمة ان تجد هذه الجرائم ترى
صالحا فى نفوسها فى وقت هى احوج ما تكون فيه الى من يبلر فيها
بدور القوة ويدفعها الى تطلب الحياة العالية .

كتب جيته الشاعر الالماني رواية « احزان فرتر » وهو فى التاسعة
عشرة من عمره اى قبل ان ينضج ويستكمل الرجولة فراجت
واشتهر امرها وانتشر بها الصيت الى كل ركن وذهب بها السمع
فى كل زاوية فى العالم الغربى وتقلت الى جميع اللغات الحية ولكن
واضعها الذى كان حقيقا ان يزهى بهذا النجاح وان يفتتن بما وفقت
اليه باكورة اعمال من اللبوع واستفاضة الذكر وان يفريه ذلك
بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة — ظل الى ان
مات لا يندم على شىء ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من
عمل له خجله منها حتى لقد تمنى لو استطاع ان يجمع كل نسخها
من ايدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر انها وصمة لرجولته ؟ لان فرتر
بطلها انتحر من اجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة اجل من
ان يقطع المرء حبلها لخيبة امل كائنا ما كان او ان شئت فقل هى
اهون من ان يكبر المرء امر سمودها ونحوسها الى هذا الحد . وان
مما يصم الرجولة ولا شك ان لا يكون صحيح الادراك للأمور وان
لا يستطيع ان يلبس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين
الوسط .

فأين تختبئ العبرات من هذه الرجولة الضخمة التي تقدر
واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجولة لا تقول في
الدنيا أشقياء كثيرون فلأبك عليهم ولا ندب سوء حظهم ونحس
طالعهم ولا نعلمهم إلى الناس بل تقول الحياة طلوع ثنايا ومصارعة
منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطيء ومصيب وناهض وكاب عائر
وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضى حق الحياة عليه ولا يمتلئها
دينها بل يؤديه إليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور أن أفلح
ومعذور أن أخفق

جيتة - تلك الصخرة القائمة في لجج الحياة تناطحها كل موجة
وتلطمها كل ربح وهي وطيدة لا تلين ولا تساقط على الصدمات
والأهوال - هو مثال الرجل الخليق بالحياة ، هو البطل الذي قرت
منده ثورة « كارليل » الهائج في ميادين الفكر لا يعرف السكون
ولا يدوق طعمه إلا بالتمنى حتى لم يسعه لما ترجم إحدى روايات
جيتة إلا أن يخضع للجامة ويستفيد لعنائه وإلا أن يخرج من
طبيعته - أن صبح هذا التعبير - وينسى جموحه مع المعاني وركضه
في حلبة متوعدة من الأداء فجاء أسلوبه فيها سلسا كالماء الرقراق
المتحدر في سهل دمث من الأرض .

ولعمري ما أبعد البون بين أدب تمليه الحياة المتدفقة وصحة
الإدراك وبين كتابة ميتة مملوءة صديدا وبلى شائعا فيها كهذه
العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التي لا تعرف
لها مثيلا في كل عصور الأدب التي مرت بالأمم قاطبة من آرية
وسامية !

خذ مثلا لذلك قصة « اليتيم » التي صدر بها عبراته وموضوعها
أن فتى في العشرين من عمره مات أبوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا
فكفله منه وأكرمه وأحسن إليه إحسانه إلى ابنته التي كانت في
مثل عمر الفتى فشبا عشرينى صفاء وخذنى مودة ووفاء ، ثم ذهب

العم الى جوار ربه بعد أن أوصى زوجته أن تكون للفتى الذى لا اسم له ولا أم - أما كما كان هو له أيا ولكن الزوجة لم تلبث أن تنكرت للفتى فرغمت أنها عزمت أن تزوج ابنتها ترى أن فى بقائها بجانبها ما يريبها عند خطيبها وأنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا ذلك الجناح الذى يسكنه الفتى من القصر وأمرته أن يتحول الى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هى بشأنه وشأن نفقاته فيه فأكبر الفتى ذلك وعظم عليه الأمر وأسودت الدنيا فى عينيه لأنه يحب الفتاة حبا لا يعلم به أحد ولا الفتاة نفسها ، بل ولا هو نفسه الا فى هذه الساعة . فأنسل من البيت ليلا وأثر أن يستشرد ثم سكن الفرفة العليا من المنزل المجاور لمنزل المنفلوطى . ولكنه لم يستطع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة أشهر لا يهبط ببلدة حتى تنازعه نفسه الى أخرى ، ثم شعر بسكون فماد الى الحجرة فلزمها هى ومدرسته ولم يبق من أثر لذلك العهد القديم الا نزوات تعاود قلبه من حين الى حين . ثم ان خادمته فى بيت عمه اهتمت اليه وحملت اليه كتابا من الفتاة تطلب اليه فيه ان يأتى ليودعها قبل موتها ، ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فلحق بها ومات هو الآخر فدفنسه المنفلوطى معها تنفيذا لوصيته .

هذا هو موضوع القصة . والآن فلنرجع ايها القارئ الى مثال القفل والمفتاح . ليس فى المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور المافية ليس به شيء من الآفات التى تقعد بالمرء عن ملابسة الحياة على الوجه الصحيح . فاذا كان الامر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطى الذى نسي أن يذكر لنا علة وأوصابه الجسدية . كذلك ليس فى القفل عيب . لأن الظروف المحيطة بالفتى والأحوال التى كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادى السليم من مكافحته ولكى يقتنع القارئ بما نذهب اليه نجاوز الأجمال الى التفصيل ،

ارادت امرأة عمه ان تزوج ابنتها وهى رغبة طبيعية تحسها

كل ام ولم تكن تعلم ان الفتى يحبها لانه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك
ويدريه ومصداق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطى .

ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمى فى نفسى ودا واخاء
او حب وغراما ، ولكننى أعلم انه ان كان حبا كان فقد بلا امل او رجاء
فما قلت لها يوما اننى احبها لانى كنت اضمن بها وهى ابنة عمى ورفيقة
صباى ان اكون اول فاتح لهذا الجرح الاليم فى قلبها ، ولا قدرت
فى نفسى يوما من الايام ان اصل اسباب حياتى باسباب حياتها -
ولا حاولت فى ساعة من الساعات ان اتسقط منها ما يطمع فى مثله
المحبيب ولا فكرت يوما ان استشف من وراء نظراتها خبيثة نفسها
لا علم اى المنزلتين انزلها من قلبها منزلة الاخ فاقنع منها بذلك او
منزلة الحبيب فاستعين بارادتها على ارادة ابويها .

فما ذنب امرأة عمه اذا كان قد شاء ان لا يتكلم او يقدر او
يتسقط او يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره
ويقوله ؟ وهو يعلم ان لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت علمته لكان
لها شأن آخر معه ، ولا يعقل ان يحسب المرء ان الناس اعرف منه
بخبيثة نفسه .

اذن فليس فى رغبة امرأة عمه ان تزوج ابنتها شئ يستدعى منه
ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرذ والانسفال تحت
الدجى طلبها اليه ان يتحول الى منزل لها غير الذى يسكنه
على ان تقوم له بنفقاته فيه حرصا على الفتاة ان يربها شئ من
وجوده الى جانبها عند خطيبها . فانه موقف معقول واحساس
طبيعى . ولا شك ان فى هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير
بعد ليلة او ليلتين كان خليقا ان يجعله يسيغها . فلماذا انسل واطر
الاستشراد والرحيل فى البلاد ، ثم لماذا بعد ان سكنت نفسه بلغ من
وقع الخبر الذى حملته الخادمة اليه ان مات ! اليس الواضح البين
انه عجز عن الملازمة بين نفسه وبين هذه الاحوال والظروف عجزا
ليس مرده لا الى آفة فى جسمه ولا الى الظروف !

وهذا بعد ليس في شيء من الحب الطبيعي الذي يحس حامله
بالغاية منه احساسا واضحا ويدركه اتم ادراك ، والذي لا يعتا
يتطلب التعارف الجسماني الكفيل بحفظ النوع . لا كهذا المسكين الذي
لا يدري اهو يحب ابنة عمه حب الاخ لاخته ام حب الرجل للمرأة .
ولا يقدر في نفسه ان يصل اسباب حياته باسباب حياتها ولا يحاول
ان يعرف ما عندها له او يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام
لا يرضى من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم
ولا يروى من تعلموا من هذه القصص ان يعدوا الهوى العذرى الذي
لا وجود له في هذه الدنيا الدنية مثلا ليس اعلى منه للحياة - واللين
الذائب والنحول والفضى من دلائل سمو النفس - والانتقياد للمرأة
كالكرة في يدها والقعود تحت حكم نظراتها وايماءاتها وحركات
حاجبيها وشفتيها ويديها ورجليها من علامات الرجولة وآيات
القتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات البهلوانية من جسمية وعقلية
والزفرات والانات والدموع وتقلب الاكف والدهول والنحول
والاصفرار والاطراق وتكت الأرض والكلام الذي لا يقوله ولا يفهمه
هاقل والنظرات الشاردة البلهاء في المجالس والمحافل وسهر الليل
ورعى النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل اطراف الاصابع
للأصباح والخيالات وتحميل الرياح انواع السلامة والتحيزات
الطبيبات المباركات ...

لا . لا يرضى هؤلاء كلامنا وان كان الحقيقة لانهم لا يطمعون على
الحياة الا من منظور المنكرات التي تصفها لهم هذه الروايات
ولا يفكرون او يحسون او يعملون الا على مثال اشخاصها ولا غرابة
في ذلك فان من لا تؤهله تجاربيته او معارفه لتصحيح خطأ الروائي
لا يسمعه الا ان يسلم بصدقه ويستمد رأيه في الحياة من كتابته
ويتخذ اشخاصه قدوة يحتذى وتقليد . وهي نتيجة يعلمها من له
اقل المام بعلم النفس وبتأثير الايحاء لا سيما في الضعفاء والشبان
والنساء ومرضى الأعصاب .

والأكر على سبيل التمثيل لتأثير هذه القصص المنحوسة اثنى
أعرف رجلا بلغ من استيلاء « سنكلر » وضروب احتياله على نفسه
وهواه في صدر أيامه ان ظل سنين وليس له هاية يطلبها سوى أن
يكون على رأس فرقة من « البوليس » السرى يطارد المجرمين ، ذلك
لأن هذه القصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب
في نفوس الاحساسات الطبيعية في نفوس الشبان واخصها الحب
بتنبيهها مركز التوليد قبل الاوان وقبل ان يكون الباحث على الحب
هو النضوج الجنسى في الفرد .

أسلوب المنفلوطى

أما أسلوب المنفلوطى فى هذه القصة وفى سواها فأسلوب رجل لا يبالى من أى مدخل دخل على القارئ ما دام يقدر أن سيصل منه إليه ولا أى بلاء يهديه فى احتياله ويقحه عليه وأذ كان يعرف من نفسه التلغيق والتصنع فهو لا يزال يعالج الاقتناع والتأثير بضروب من التاكيد والغلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس أدل منه على الكلب والتزوير لما وقع فى وهمه من أنه يكسب الكلام قوة وشدة لا يفيدهما أن يلقى ساذجا ويدعه غفلا وأول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعله بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه أنه من المحسنات اللازمة للصقل وإن العبارات بدونه تكون مبتورة ، والجمل لا يجرى فيها النفس إلى آخره دون توقف وامتناع . ومع أن قصة اليتيم فى تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فإن فيها أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ليس من بينها واحد لا يكون الأسلوب أسلس وأطبع بدونه . لكنه ذهب إلى المبالغة فى كل شيء وآلى أن يجاوز كل حد معقول طلبا للتأثير من طريق الإفحاش فى التاكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارئ فى أى كتاب يفتح من كتب الأدب .

ومعلوم أن الكلام لا قيمة له من أجل حروفه فإن الألفاظ كلها سواء من حيث هى الفاظ . وإنما قيمته وفصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذى تقع به المزية فى معناه لا . . أجل جرسه

وصداه ، والا لكان ينبغي أن لا يكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك أن الالفاظ ليست الا واسطة للاداء فلا بد أن يكون وراءها شيء ، وأن المرء يرتب المعاني أولا في نفسه ثم يحدو على ترتيبها الالفاظ وأن كل زيادة في اللفظ لا تفيد زيادة مطلوبة في المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطلبه من أخذ عن نفسه ، وغيب عن عقله ، وأبلغ من ضلال الراى أن راح يحسب أن تأليف الالفاظ تأليفا طبيعيا مطردا خاليا من العكس والقلب منوها عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتأثير . وينسى المسكين أن كان كلمة يستطيع القارئ أن يسقطها بدون خسارة في المعنى أو تعويق لتصدر الاحساسات أو افقار لغناها - كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فإن المالم اغنى في باب الأدب من أن يحتمل هذا الحشو ويصير عليه وليس شيء أحق بأن يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحيه من المزاييا غير حبك الاداء ، ولكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطى لأن اللغة عنده ليست الا زينة يعرضها وحلى يخيل بها لا اداة لنقل معنى أو تصوير احساس أو رسم فكرة . ومن أين له أن ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لا معنى في صدره ولا فكرة في ذهنه .

وهذه امثلة للمفعول المطلق في كتابة المنفلوطى وكلهما لا ضرورة اليها ولا داعى الا من الرغبة في تأكيد القلو الذى يتطلبه من يحمل نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجرى هذا المجرى من الأغراض الأخرى .

- ١ - وقلت لابد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تلدوب بين أضلامه (ذوبا) .
- ٢ - فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

- ٢ - ثم لم ازل اراه أو منظريا على نفسه في قرائنه يئن
(أنين) الوالهة التكلى .
- ٤ - وأتمنى لو استطعت أن اداخله (مداخلة) الصديق
الصديقة .
- ٥ - وقد بلغ الأمر (مبلغ) الجذ .
- ٦ - وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجا) شديدا .
- ٧ - فشعرت براسه يلتهب (التهابا) .
- ٨ - وإذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه يدينه (موجا) -
يصف نحوله .
- ٩ - فاستفاق قليلا ونظر الى (نظرة) عذبة .
- ١٠ - فتنهد طويلا ونظر الى (نظرة) دامعة .
- ١١ - أصبحت ممنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك .
- ١٢ - فأنزلنى من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبلى .
- ١٣ - ١٥ - فعنى بى (عنايته) بها وأرسلنا الى المدرسة فى يوم
واحد فأنست بها (أنس) الاخ باخته واحبيتها (حبسا)
شديدا .
- ١٦ - ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها (عقدا) لا يحله الا ريب
المنسون .
- ١٧ - فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح فى كاسها .
- ١٨ - ثم انسللت من المنزل (انسلالا) من حيث لا يشعر احد .
- ١٩ - وهكذا فارقت المنزل ... (فراق) آدم جنته .
- ٢٠ - فرحلت (رحلة) طويلة .
- ٢١ - هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم
له مكانا ثم دارت بى الأرض الفضاء - يعنى غرقتسه -
(دورة) سقطت على اثرها فى مكانى .

- ٢٢ - فحزنت عليها (حزن) التاكل على ولدها .
٢٣ - وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت
ان كبده قد ارفضت .
٢٤ - وان الضربة التي اصابته قد سحقته (سحقا) .
٢٥ - ٢٦ - اشعر براسي يحترق (احترافا) وبقلبي يدوب
(ذوبا) .
٢٧ - تم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها الخ .

وقد عددنا له الى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقا ولا ندرى الى اى رقم
يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجسيم انفسنا هذا
الحساب غرابة هذا الكلف منه بصيغة المفعول المطلق . ولنعرف هل
الشبان واحد في كل كتابه ام هو اتفاق ومصادفة في هذه القصة
وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها القرب
جميعا !

ولعل القارىء لاحظ فيما اوردنا من الامثلة كثرة التبعوت
والاحوال كقوله « خرجت منه » - يعنى المنزل - شريدا طريدا حائرا
ملتاعا » وقوله : « تركنى فقرا معدما لا املك من متاع الدنيا شيئا »
وقوله وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس « قريحة معسبة »
وقد يعلم القارىء او لا يعلم ان هذا الاسراف فى التبعوت من دلائل
الضعف وفقر الدهن لان الكاتب انما يرصها واحدا بعد واحد وفى
مرجوه ان يوافق واحد منها محله وان يقع فى مكانه ولكن المطبوع
يعرف ماذا يأخذ وما يلقى ويشبه وانما كان هذا الاكثار من الصفات
من علامات الوهن لان الكاتب الضعيف لا يستطيع ان يتحرى الدقة
اذ كان لا يدري اى الرموز اللفظية اكفل بالعبارة النابعة عن المعنى
المراد فهو من اجل هذا يستعمل اللغة جزافا ويكيل الانفساظ بلا
حساب مستعينا على الاختيار بالارتباط الغامض بين الالفاظ فى
ذاكرته وبرنين الأصداء المتقطعة للأصوات المألوفة . وهناك امر آخر

وهو أن الترادف في اللغة من الأكاذيب الشائعة إذ ليس ثم في الحقيقة لفظان يؤيدان معنى واحدا على وجه الضبط . وما من مترادفين يزعم الزاعمون أنهما سواء في المدلول إلا وبينهما مقدار من الاختلاف قل أو كثر ، فإذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوت متقاربة المعاني متشابهة المدلول كان لنا أن نسأل أيها يعنى على التحقيق وأي مدلولان هما المتفاوتة يقصد اليه ويريد منسا في فهم المراد أو تكوين الصورة أن نعتمد عليه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حصد ولا يعين على التصور اجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن في هذا مثله في التصوير والرسم فكما أن الممول فيهما ليس على كثرة الألوان بل على اصابتها مواضعها ووقوعها مواقعها قلت أو كثرت وصحة التأليف بينها كذلك في الكتابة ليست العبرة بتعدد النعوت ولكن بمبلغ ابانتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أقرى سبسمعنا السخفاء واشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحية أن هذا ليس سوى فنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأي حماسة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن ههنا أصلا يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق اليه وإن كان على هذا لا يحتاج إلا الى ايسر فكرة وأدنى نظرة وهو أن اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شيء في ذاته ولا معنى له في نفسه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف ويضم الألفاظ بعضها الى بعض كاللون في ذاته لا يفيدك صورة ولا يعطيك شيئا إلا بعد أن ياتلف مع سواء ويجرى كل الى أخيه مجراه وليس لغير ذلك مساس في العقل أو مجاز الى الفكر وقيام في النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المزجى لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفي جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئة وحسنة أو قبيحة سخيفة ، والا فإن أحسنا لا يعجزه أن يعمد الى معجم أو كتاب مترادف فيأخذ منه ويسرد وليست كثرة الألفاظ المستعملة المسوقة من شأنها أن تدل على كثرة الاطلاع وسعة الحظيرة وطول الباع وانمسا التأليف والتركيب والافتنان بهما والقدرة عليهما هي آية هذه السعة والطول والكثرة

فلا تجعل بالك الى الالفاظ اذا شئت أن تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ، ولكن اجعله الى طريقة تأليفه الكلام فان رأيت يدور منها في حلقة لا يكاد يمدوها حتى يكر اليها فاعلم انه ضيق المضطرب محدود المجال ، ضئيل الحال ، والتى بعد ذلك الفاظه من اى حائق شئت .

وكذلك المنفلوطى لا يكاد يفوتك أن تقرأ له هذا التركيب :
« فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الأرض أحد أذل منى ولا أشقى » - « ومارثى مثل يومها يوم كان أكبر باكية وباكياً » أو هذا التأليف « فما هو أن مرت أيام الحداد حتى رأيت وجوهاً غير الوجوه » - « وما هي إلا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضربائه » ونحن فائساً نمثل ولا نستقصى ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المصال لوجد له مخرجاً من هذه الدوائر - والالفاظ كالحجارة في محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها في راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة والتثبت في انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينها .

فإذا تقرر هذا وان المنفلوطى ذاهب مذهب التخنث في كتابته وملفق مستحيل التلفيقات ، وأنه لا يزال بعاليج التأثير بالتطرى والرخاوة في العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالفلو والتاكيد في صوغ الكلام وتصوير المسألة فان بنا بعد هذا أن ننظر كيف يسوق القصة اى في الاسلوب بمعنى الطريقة التى يجرى عليها فى تناول الموضوع وعرضه .

وقد ألف الناس لطول عهدهم بالمقلدين أن ينظروا الى الاسلوب من حيث هو تأليف للكلام على معانى النحو ونحن نريد أن نلقى على هذه القردة درساً فيما يفيد صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة افق الفكر .. وانا لنعلم انه لن يفيدهم الا الحسرة على ما ضاعوا من العمر وجنوا من السوء والخيث في هذه الامة التى تكبت بهم على

قدر سدر أعينهم وضلال أفهامهم ، ولكننا ما قصدنا قط الى امالتهم
صدا هم فيه وان كانت الخزائم حاضرة بل تبصر من له طبع من
المنشئ اذا قدحته ورى وهدى من له قلب اذا ارىته راي .

ونعمد لما نريد تبينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوما
لا يدركون الشيء او يصدمهم فنقول ان ههنا في ناحية من الطريق
شرطيا واقفا يرقب الحركة ويلاحظ العادين والرائحين والراكبين
والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المتنزئين الى الشر الى اى هو تابع
له من « الاقسام » تراه وتزن التبعة التى عليه والسلطان الذى فى
يديه وتقيس النصب الذى ينبغى أن يعاينه الى القدرة اللازمة التى
لا تواتيه فتعطف عليه فى محنته وترئى له فى وقفته وتصوره وانث
ناظر اليه من جانب الجد الذى لا هزل فيه وفى ضوء الواجب مكابدا
او امرد ونواهيه - هذا وربما ذهبت تعتبره مرة اخرى من الجانب
المضحك فى هيئته وفى تراخى همته وبطء حركته او عديم التسلاؤم
والتناسب فى بزته ووفاء قامته وهخاذله فى مشيته وتشاوبه واستناده
الى الجدران وذهول نظراته او حواراه مع الباعة وتأنيه الى غايته
وتقطيعه جبينه وهو يدفع فى جلبته او تواريه فى الدروب ووراء
العمد اذا جد الجد بالطعام فى « تقطته » الى آخر ذلك . ثم تصوره
صورة تركبه فيها بالدعابة فانت قد تناولت موضوعه من جهتين
متباينتين اذ كنت قد نظرت الى امره وحاله نظرتين مختلفتين كنت
فى الاولى جادا وفى الاخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين
معبرة عن اعتبارك اياه ناطقة بالفرض منها فوجهة النظر الى
الموضوع والطريقة التى تتحراها لفائتك هى ما نسميه اسلوب
التناول ولا شبهة فى ان المرء ينظر الى الامور من جهات معينة - من
ناحية الجد او الهزل او المألوفية او الشدوذ او الجلال او الحقارة
وليس يعنينا من اى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنيا مقدار ما
فى سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح ومبلغ
التغلب على الصعوبات . ونقول مبلغ التغلب على الصعوبات لأن

القصصى لا تظهر قدرته في المواقف الهادئة السلسة وإنما تستبين وتتضح حيث تكون أشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفي المواقف التي تتطلب ادق النظر وأشق التمييز وأصح العبارة .

فكيف تناول المنفلوطى موضوعه وما هى الفكرة العامة التي نظر بها فيه ، وبماذا اعد لها وكشف عنها وهل اللغة التي استعملها صادقة وهل السلوك الذي عزاه الى أشخاصه مما هو معهود في الأديبين كما نعرفهم وما مبلغ اسرافه أو قصده وما مقدار خبطه وتخليطه أو أصابته وسداده .

عسى قائل يقول : انك تضعه في ميزان لم يقصبه لنفسه ولا كان في باله ولا جرى له هو وأمثاله في خاطر . وردنا على هذا المحتج ان الأدب لا شأن له بهذا الإهمال أو الجهل والاعتداد فيه إلا بالصلاحيات للحياة . وهى هى ميزانها أبداً واحداً لا رفق فيه ولا هوادة فان خفتم على صاحبكم ان تشيل به الكفة فأخرجوا به من هذا الميدان وادهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان ابيتم إلا أن تعدوه كاتباً أدبياً فلا تسمح من قدفه في هذا الاتون الحامى لشرف من أى معدن هو . وانتم بعد خلقاء أن ترضوا لصاحبكم ما نرتضى لأنفسنا مختارين مرتاحين فانا نعيش في عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير ، وشك محيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيفات عصر تعتصر فيه العقول ويستنفذ في حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوائلنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطة زاحر العباب يضطرب بنا متنه في عشي لياليها المتجاوية بصيحات التلك والظلمة الى المعرفة والحنين الى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب في أثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون ان الادب والفلسفة - أو النظر المخلص الصحيح ان شئت - لا يتفقان وان الفائص على الاسرار الطالب للحقائق لا يكون ادبياً وان الأديب لا يكون معمداً ورائداً وان ما وصل الله من الخصائص .

والفة يجب ان يقطعه الانسان ويمادى بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور وقد سقط في هوة الابد وجاء زمنا الشادى بملاقة الطبيعة بنفس الادمى الراكض بمداركه من ميدان الى ميدان ، والمريغ وراء السماء سماء وبعد الابد ابادا ، المصيخ الى صوت اعتلاج موج الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر » .

ونعود الى صاحبكم المنفلوطى - وما اهل هذا الانحدار - فنقول ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصها لكفاية وفوق الكفاية . ولقد كان حسب سوانا في غير هذا الباد ان يشير بطرف القلم الى ما فصلناه ولكننا وطنا النفس على الجسد ورضناها على السكون الى ما تكلفنا اياه حادثة العهد بالادب الحى .

يحسب المنفلوطى ان تكلف التفصيل فى المحسوسات مظنة الاجادة وفاته - وانى له ان يفهم هذا - انه لا يعجز احدا ان يقول لك هل فلان هذا الذى تراه طويل ام قصير ونحيل ام بدين وهل فى يده كتاب ام عصا ونائم هو ام جالس !! وانما محك القدرة فى تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة لا طواهر الاشياء وقشورها وفى رسم الانفعالات والحركات النفسية واغتلاج الخواج الدهنية وما هو بسبيل ذلك .

اما تفصيل المنفلوطى فلا خير فيه بل الخير فى اجتنائه وتحاشيه وليذكر القارئ ان هذا المسكين يروى عن نفسه ويحدث بما يدنى انه كان شاهده من غرفة مكتبه المظلة على غرفة الطالب - وهو بطل القصة - فى البيت المقابل له فى الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق المنزلة الاولى بين شيوخ الرواية .

« كنت اراه من نافذة غرفة مكتبى وكانت مظلة على بعض نوافذ غرفته فارى امامى فتى (شاحب) الوجه منقبضا جالسا الى مصباح منير فى احدى زوايا الغرفة (ينظر فى كتاب او يكتب فى دفتر او يستظهر قطعة او يعيد درسا) فكيف استطاع هذا التمييز بين

الاستظهار والاعادة وكيف رأى شحوب لون الوجه مع هذا البعد ؟
ولكن هناك ما هو ادهى :

« عدت الى منزلى منذ ايام بعد منتصف ليلة قرة من ليالى الشتاء فدخلت غرفة مكتبى لبعض الشئون فأشرقت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك الى مصباحه وقد اكب بوجهه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت انه لما لم به من تعب الدرس والام السهر قد عثت بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب الى فراشه وسقطت به فى فى مكانه فما رمت مكانى حتى رفع راسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها الى بعض ثم لم يلبث ان عاد الى نفسه » .

وهى لا تفيد ولا يمكن ان تفيد شيئا سوى انه يريد ان يطيل الجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارئ ثم هل تدرى انه احس انه موشك ان يقول شيئا مستحيلا ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين النافذتين عرض الشارع وهو مهما ضاقت وحتى لو كان الوقت وقت الظيرة المتقدمة للمتعة لا يسمع بان يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة او جولان العبرة فى الجفن وقد شعر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لمصابه لم يجد ما يخرج منه مما اوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير ان يقول ان الفتى رفع راسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وانت ايها القارئ هل قنعت ام نريدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل فخذ ثلاثة الاثاني : ذهب المنفلوطى اليه لانه سمع « فى جوف الغرفة انه ضعيفة مستطيلة » ووضع يده عليه فعلم ان الفتى محموم .

« فامررت نظرى على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينه رائيه واذا قميص فضفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه

موجاً قامرت الخادم أن ياتينى بشراب كان عندى من اشربة الحمى
فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلا »

ابنا حاجة الى التعليق على هذا الهراء ! لقد سمعنا بمن لولا
مصادفته اياك لم تره وبالجسم لو ثؤكأت عليه لانهدم فاما القميص
من الجلد يموج فيه البدن فلم تكن تتوقع أن يسمعه احد الا في
مستشفى المجاذيب ! ومع كل هذا النحول احتساح صاحبكم
المنفلوطى أن يمر نظره على جسم الفتى .

ولست احب أن انقص على القارئ كتابنا بكثرة ما اورد من
هذه التليفقات المنكرة ولكنى أسأله الصبر على هذه الجملة أيضا
— دعا المنفلوطى الطبيب فجلس المريض وهمس في لذه أن العليل
مشرف على الخطر — ولا عجب أن يصير الى هذا المصير الخبيث
بعد أن جرعه المنفلوطى — شراب حماه — ثم دفع اليه المنفلوطى
الأجر واحضر الدواء .

« وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين
الطرفين أسقيه الدواء مرة وإبكى عليه أخرى حتى انبثق نور
الفجر » .

والعادة ان الاشربة يسقاها المريض بعد فترات (زمنية)
يحددها الطبيب ولكن الظاهر ان طبيب المنفلوطى امره ان يعطيه
الدواء بعد كل ... بكاء !

ومع ذلك فاذا لم تكن الذاكرة قد خاتنتنا فان المنفلوطى مات
له طفلان في اسبوع واحد « فسكن لهذا الحادث (سكونا) لم
تخالطه زفرة ولم تمازحه عبوة على فرط حبه لهما وتهالكه وجدا
عليهما » !!! وكذلك كان سكونه لما ماتت زوجته فقد جلس الى
الناس يحادثهم حتى كان المرزوء سواء .

وبعد ان استفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب
المنفلوطى عليه وابلا من الأسئلة وهو يعلم انه في سياق الموت

(فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآني فقال أنت هنا ؟
قلت نعم : أرجو أن تكون أحسن حالا من ذي قبل . قال أرجو أن
أكون كذلك . قلت : هل تأذن لي يا سيدي أن أسالك من أنت وما
مقامك وحدك في هذا المكان وهل أنت غريب عن هذا البلد أو أنت
من أهليه وهل تشكو داء ظاهرا (ياللعنى) أوهما باطنا وهل لك
أن تحدثني بشأنك وتفضى الى بهمك كما يفضى الصديق الى صديقه
فقد أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن القريب أن الفتى لم ويصفعه ماذا كان يخشى المسكين لو
فعل وهو مبت لا محالة - بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذى
انتهى بين يدي هذا الحانوتى بعد أن قرغ من الحديث الذى يملأ
أحد عشر صفحة من تسع عشرة فما أطول نفسه في ساعة الموت !
وما أخلق هذا الأدب الميت بأن يروى عن المجتضرين ! وما أحق
أهل الفتى أن يطالبوا المنفلوطى بدمه ؟

إبراهيم عبد القادر المازنى

شوقى فى الميزان

٢

مرضنا (شوقى) فى الميزان لأول مرة فارتجج به ارتجاجا منيفا
وايقظه من غفلة كان فيها سادرا وما هو الا ان حط به لم شال حتى
لتمنى ان يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه
الشعر ويقول لخلطائه وسماسرته : « هبونى لست بالشاعر اليس
لى فخر آخر اذل به !! »

تقول اجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الاثر ما كنا نقدره لاربعة
اجزاء فكان استعدادهم لتلقيه دليلا على ظهوره فى اوانه -
اسرعوا الى اقتنائه حتى نفدت نسخه فى اسبوع او اقل ونادرا
ما كانت تقصر النسخة منه على قارئ واحد وتوالى الطلب له
فى المدينة والاقاليم فلم نر بدا من التعويل على امادة بطبعه ، وقد
كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها الى الادب .
فمنهم شبوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضى ذوى العقول المتزنة
والبظر المستقيمة والاطلاع المجدى وموافقتهم عليه مرضية ورأيهم
فيه جميل . ومنهم الذكاء الشبان الدارسون او السالكون على
الجادة وكثير بينهم المشايخون بل المتهللون . وطائفة اخرى حظها
من السماع اكثر من حظها من الاطلاع وجدناها الى الموافقة المشفومة

بالدهش اقبل منها الى المنافرة والمنت وربما عز على بعضهم أن
يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطا ويتهم ناقدته بالانحراف
فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التفسير ، وفي هؤلاء أمل
لا يضيع ولا سيما بعد هذه الدهشة وتطامن المفاجأة لان نزاهة
الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة
ان اللام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من ييوسة
الحصباء ما يشق تسويته او يعسر هند اليأس منه نبذه . واما
التدبر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره
ونعنى فريقى القراء - وبالحرى المتحدثين - الذين لم توجه اليهم
خطابا . وهما فريق المجيبين على الاشاعة الذين يطربون لما
يطرب له الناس فرارا من تهمة الجهل والفرازة ويغرمون بالشعر
كما يغرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات او بتربية الديكة
ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التى فتن بها . ومن
اظرف ما يروى عن احدهم أنه سمع جملة فى نقد رثاء شوقى
لعثمان غالب وفيها تسخيف للمنساحة التى اقام لها الأزهار
والرياحين وسؤال عما كان من القطن بأصنافه فى تلك المناحة فظن
- صان الله لشوقى اعجابه - اننا انما انكرنا سكوته عن القطن
واردنا منه ان يذكره فقال متمجبا : وهل كان القطن (طالعا)
وقتل فيذكره فى القصيدة ؟

والفريق الآخر من الساخطين هم اولئك الذين عرفوا بانهم
شركاء شوقى فى (العادات الخصوصية والمآدمات الليلية) فما
رأينا احرا من سخطهم ولا اكثر تصنعا لأسبابه وتمحلا لعلة ، وهذه
آخر اشارة نلمح اليهم بها .

ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن
القصد ولا نستبعد رجوعه الى الحق متى وضع له وجهه . أول
الانتقادين واشبههما بالحق اننا اخترنا اوهن قصائد شوقى

وأكثرها مغامر . وليس هذا صحيحا فاننا انما راعينا الحدانة
ليما اخترناه من قصائده وهي لا تقل في اعتقادنا واعتقاده عن
أجود شعره صياغة ومعنى . ولكن الحقيقة — كما قلنا في الجزء
الأول — هي أن قراء اليوم غيرهم بالأمس فليس يرضيهم ما كان
فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر أصحاب هذا القول
باننا انما كنا نصوب الانتقاد الى شاعرية شوقي وذوقه وروح
قصائده ومنهج أدبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه
المجلة والثاني ، وإذا كان الطعن في الشاعرية والعساهة في الذوق
والاهوجاج في المنهج فاختلاف القصائد كيفما كان الموضوع والأسلوب
لا يقدم ولا يؤخر في الحكم على الشاعر . ولعلمهم بعد الاطلاع على
هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث في شعر شوقي سواسية .

أما ثاني الاعتقادين فهو اننا افلطنا العصا لشوقي وشددنا عليه
النكير . ولهؤلاء نقول اننا لا نهدم خطأ مؤسسا على البرهان فننقضه
بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة وما
أحوج البرهان في هذه الى الشدة وما أقل ما يغنى فيه اللين
والهودة .

ومما استصعبوه اننا قرنا معاني الشحاذين . فياعجبا !!
كاننا نحن نهينه اذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف
منها وهو لا يهين نفسه ويهين ضمير الأمة حين يجمع المحافل المشهودة
لتكريم الشحاذة في أشنع ظروفها !! وإى حق على الناس أن لا
يعرف لنفسه ولا للناس حقا !! فنحن لا نرى للرجل في انفسنا قدرا
يتجأى به عن أخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما اعلناه في
توطئة الجزء الأول ولا نريد العدول عنه في هذا الجزء ولا في الأجزاء
التالية فمن كان يفقه ما نقول ولم يفضب لكرامة الفكر تداس هوانا
ولضمير الأمة يلطم على وجهه عيانا فليفضب علينا ما شاء فانه
لا يعرف كيف يفضب .

وكاننا بؤمرة شوقى يتساءلون : وما كرامة الفكر هذه التى يغضب لها الناس فى آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا تؤكد لهم انها حقيقة تحس وتلمس وان كانت لا تؤكل ، وانها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الاول عسى ان يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الاديب الجدير بشرف الادب، وما ترخص له المحاكم فى التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه .

كان ولا يزال فى حاضر الزمان ، لا فى سالف العصر والأوان . وفى الجزر البريطانية لا فى جزائر واق الواق ومعاهد السحرة والجان ، انسى يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص ... لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويدكى فى النفوس الضرم . شاعت شركة جناوزان ان تقتبس منها ابياتا لترويج غذاء مشهور من اغذيتها التى تجهزها لمداواة الاعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فماذا كان من امر ذلك الرجل المدعو رديارد كبلنج الذى قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا انه قاضاها الى احدى محاكم لندن ، وزعموا ان وكيله - ويدعى المستر هيوز - وقف فطلب الى القضاء منع الشركة من امتهان الابيات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال . « انه لن اصعب الاشياء ان يتخيل الانسان امرا اشد ايلاء لنفس المؤلف من ابتدال كلامه بادماجه على هذه الصورة فى صياح الباعة على سلعهم . انها لاهانة لا تقل عن السباب القذع لكل من لامست نفسه اقل مساحة من الكرامة الادبية » .

قالوا : فلما نطق القاضى بحكمه علر الشامر وقال : « لا عجب ان ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة - وهندى

ان هذا الاقتباس لا يدخل في حق الاستشهاد الذي يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١ « وحكم بتفريم الشركة أربعين شلنا تعويضا للآهانة التي ألحقتها بالشاعر (١) » .

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكها بروايتها عن تلك العنقاء التي يسمونها الكرامة الأدبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الاساطير في غير قصور ألف ليلة حريون ان لا يقفوا بها عند حد التفككة .

لمثل ذلك الابتذال يغضب اديب الفريين ويقول محاميهم انه أشد ما يتخيل ابداء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف أن يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعا وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقتربون ما يحاسبون عليه حين يتساعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة ييؤ بها كاسب ، ان صح ان التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لان أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الأدبية واريحية الفنون أقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر الا انه « أسرى مروءة الدنى وادنى مروءة السرى » كما كان يقال في عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شمسكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولغزا مفلقا ، لان هذا الذي أنف كبلنج أن يصنع بشعره على فيه على غير علم منه قد صنعه شوقي بشعره مختارا وتعمد أن يكون اعلانا لسلعة معروضة ؟ ألم ينظم أبياتا يروج بها « ريشة صادق » ونشرها في الصحف ؟ بل فقد قال ادامة الله للدكاكين والمائم والأفراح والسهرات :

له ريشة صادق من ريشة تزدى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة في المشارق كلها حسنا وفكتها من التقييد

(١) جريدة الديلى كرنكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

وتعد في الاحسان كل مجيد	تهدي لحسن الخط كل مقصر
من ريشة الالماس عند الفيد	اغلى لدى الكتاب ان ظمروا بها
من ريشة الليثى فوق العود	والذفوف الطرس ان خطرت به
وتقول ايام ابن مقلة عودى	وتكاد يحيى مؤنسا بصريها
مصرية لاستوجبت تمجيدى	لو لم يكن في الامر الا انها

وفي هذه الابيات اوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة -
شعر لا يتأبه صاحبه ان ينزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقرية
دراجة ابانت ان اخیلته وابتكاراته هي ومبالغات الباعة وتزويقات
الدالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وان من يروج ريشة
كتابة بانها « اغلى من ريشة الالماس » لقريب نسب ممن ينادى في
قوارع الطرقات « يا جواهر يا عنب » والذي يدل على ريشة عربية
بانها « حسنت الكتابة في المشارق كلها » انما يرشف من البحر
الذي تغرف منه « الفرص الحقيقية واحسن بضاعة في العالم كله »
و « ولم لم يكن في الامر الا انها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب
الى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى ان
الباعة لا يفلطون غلطة شوقى فيقولون وهم يعرضون الريشة
ويمدحونها بالجدة والسلاسة ان لها صريرا يكاد يحيى الاموات !!
وبعد فان المرء ليزدري العقل الانساني نفسه ان قيل ان هؤلاء
الصماليك الفكريين الذين تقوم عليهم الامارة الشوقية من ذوى
مزاياه وحملة اماتته في الأرض . فالادباء في الامم هم عنوان حياتها
الروحية والفكرية ومعيار لما تحسه من مفاخر الحياة وقوى
الطبيعة ومعاني الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور
السماوى الذى يفيضه الله من الايات والفنون جمالا ونبلا . ويوحيه
كمالا وفضلا ، وهم اذا ذكرت الفصاحة في الامم صفحتها الواضحة
وطبقته المتأزاة الراجعة ، فقل لى رعاك الله اى هذه الطغمة امرا
كان او مأمورا تفخر الامة الحية بانه صورة ما فى نفوسها من زينة

وجمال ومظهر ، ما في رؤسها من فكر وخيال ، وترجمان ما يجول
بوجداناتها وتعمر به صدورها من قسط في الوجود ، وتراث مقسم بين
إبناء آدم . وإن المرء ليزهى بأدميته حين يلغى بنفسه في بحار الآداب
الغريبة ، وتجيش أعماق ضميره بتدافع تياراتها ، وتعارض مهايبها
ومتجهاتها وتجاوب اصداؤها واصواتها - أبواب للكتابة متنوعة ،
ومهايع متسعة ، وفنون مبتدعة . ونحل ومذاهب ، ومدارس
ومشارب . والحياة بين هذه الأفكار المشرقة معروضة للنظر في كل
شبة من شياتها ، محسوسة في كل خطر من خطراتها ، متكررة
متضاعفة ، شاقة موقنة ، جادة ساخرة ، ناقمة راضية ، شهوانية
متنطشة . فياضة غير بكية ، موصولة ينابيعها مروية ، والنفس
تحس من إحدى نواحي ذلك العالم الرحيب ما لا تحسه من سواها .
فكانها نفوس متفرقة لأنفس واحدة جائمة .

كذلك عالمهم . ثم تلتفت إلى الأدب الذي يدميه أولئك الأميون
العارفون بالكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة
المتطفلون على موائد الخاصة فتري عجبا . ترى هذا عاكفا على
رقمنيه ولعلفه وذاك مديرا إلى ربريه وسربه ، ومادحا وهاجيا
ومحسوبا على آل فلان ومتمسحا بآل عمران . نفوس ضاوية وعقول
خاوية واخيلة في التراب ناوية . أو كأنما هي الانتقال إلى القرار
هاوية . فصدق إحدى اثنتين : إما أن أدبا تسمعه من هؤلاء اشرف
ما تنطق به النفس ساعة تسمو إلى أسنى معارج الإنسانية . أو
أنهم ليسوا من ذاك وإنما هم محترفو حرفة ليس من آلاتها نباعة
الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور .

وإن من الجنابة على مصر والشين لها أن يسمى هؤلاء نفر بعد
اليوم أدباءها وتراجعة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة
فنية يعنو ذووها لكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من
اغراضه أو يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات
أوراقهم بعرض لعبينهم وخيولهم ؟؟ ووارحمتا : الكتور المصري ؟

يساق دعائمه لتمثيل الروايات وأنشاد الأشعار بأيسر مما يساق
المولوية لتشجيع الجنائز وتلاوة الأذكار !!

ولقد كان مما قيل في المدينة الحديثة أن أقلام أدبائها إحدى
الحواجز التي تصونها أن تترد إلى العصور المظلمة وأنها عصمة لها
من أن تستبد بعقولها عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو
طائفة ، وأنها سلاح من أسلحتها الماضية تخشاه كل قوة وبحسب
حسابه كل طاغية - فأى عصمة لمصر في أقلام هؤلاء المخططين
والنظاميين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟؟ إلا أن العصا في
يد الأكار لا تنفع لمدينة مصر وأصون لسمعتها من كل قلم تشرعه
تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون أنفسهم من الكرامة فلا احجاف
بهم ، ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطاة القلم المنصب عليهم . ولقد
وجب بل أن يفهم الأدب على غير ما يفهمونه وأن ينحوا عن مكان
لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

وكانما شاء القدر أن يبدد حبات شوقي وطلاسمه كلها في
بضعة أسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم في مصر على
القوم يتنون عليه فيفترون بتشجيعهم له ويردعهم امجابهم به
ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطرا ، حتى جاءت لجنة الأغاني
قاماطت الستر عما وراء ذلك ، وهتكت للناس حقيقة اعجاب هؤلاء
العلية إذا اعجبوا وقيمة استحسانهم إذا استحسنا . وأنها إن هي
إلا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة الإدارة

شمزت اللجنة عن ساعديها وأغمضت أمام المتفرجين عينيها كما
يصنع المشعوذ الهندي إذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها في الجراب
فأخرجت نشيد شوقي وهي تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به

للملاكي يشاركها في الإبتهاج به فيللمهارة !! ولكنها لسوء حظ شوقي
كانت تنقصها خفة اليد !!

ولا حاجة بنا الى الاستنتاج ولا الى العود لما حدث في الجلسة
مما اظهر اطلاع اكثر الاعضاء على النشيد قبل التثامها اكتفاء
بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الاول .

فالقراء يذكرون ان اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين -
وهم اعضاؤها الاخصائيون - اختارت نشيد شوقي واعلنت اسباب
اختيارها له في منشورها وهي انها « انتهت في مناقشتها الى انه
اكفياها واوفاهما بالفرض واجمعها للمزايا التي ينبغي ان تتسق
لنشيد قومي » وكذلك علمنا ان حكمها لم يصدر اعتباطا ، ولا كان
عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء ان الاستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك في
الصحف ينقد النشيد ويقرر انه لا يصلح للتلحين بانغام الاناشيد
القومية . ثم انهم يذكرون ان فريقا من اعضاء نادي الموسيقى من
الذين كانوا في لجنة الاغاني اذاعوا بعقب ذلك في الصحف ان الاستاذ
انما يتكلم براه ، ومعنى هذا انهم كانوا لا يزالون الى ذلك الحين
مصرين على حكم اللجنة مجدين في ابعاد كل مظنة في صلاحية
« النشيد الوطني المختار » للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبني على المناقشة وهذا الاصرار
الصادر من روية ؟ .

ثم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هي امامهم واقبلوا
يسألونها وهي محتدمة تصفيقا : ما هذا الذي تصفون له ؟ نعم لم
يعد يكفي في هذه الامور ان يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون
وراه . وكثر اللفظ بتحيزها واجتريا الموسيقيون على الانفساء
يآرائهم في تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما وكان صاحبه اول

النهرمين . فقد اخذ يزعم انه انما نظمه ليفنيه جماعة عكاشة في مسرحهم . . . كأنما النشيد مشى بقدمين الى ديوان لجنة الاغاني !! وخشيت اللجنة ان يكون حكم الامة عليه حكما قاضيا على معرفتها وانصافها واخلاصها فبادر اعضاؤها الاخصائيون يبلغون الصحف ان النشيد يصلح للتلحين ولكن لا كنشيد قومي !! وقيل بلسان رئيسها انهم لم يشترطوا ذلك في تلحينه . اذن فماذا اشترطتم !! اتراكم كنتم تقدمون للامة « طقطوقة » تفنيها على المعازف والآلات ؟ وابن ذهبت تلك المزايبا التي اتسقت « للنشيد الوطنى المختار » !!

كذلك تهافت حكم لجنة الاغاني بيدها وانكشف طلسم كان من !بهر طلاس الشهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعنى به طلسم الاسماء الخلافة ووهم الألقاب الجذابة . . . وعندنا ان لجنة هذا مبلغ غيرتها على مهمتها لن يرجى منها صلاح للاغاني ولا لسواها ولكنها اذا كانت تخرج من العدم لتؤب اليه بعد ان تكون قد ابطلت وهم العامة في امثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من اجلها نعمة هذا الوجود القصير .

على انها مهمة ننفسها على هذه اللجنة فقد شورت فيها مشاركة لم تدع لها فضلا كبيرا فلو لم تقيضها الحوادث لآظهار قيمة التحبيل والاطراء من ذوى الألقاب والاسماء لتكفل بذلك محفل آخر اقيم في شهر ديسمبر الماضى وهذه حكايته نرويها ولا نعقب عليها .

قال المقلم في عدد يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ذلك الشهرة قد كان يوم الجمعة الماضى ميعاد لقاء القصيدة الحسينية التى نظمها حضرة الشاعر الفاضل السيد محمد عبد الله القضرى فى الحفلة التى اقيمت تكريما له برئاسة حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسن بدار الجمعية الاسلامية بقصر النزعة بشبرا فما وافت الساعة التاسعة صباحا حتى اقبل المدعوون من علماء وكبراء وادباء واعيان فازدحم بهم المكان لم اقبل نائب الامير محمد

بك جلبي باشمعاون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام وكذلك
فرق الكشافة للكشاف الأعظم ثم ابتدأت الحفلة بالذكر الحكيم
فنشيد شوقي بك فنشيد الكشافة فمقطعات شعرية من بعض
طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الأمير واعتذر عن سموه بكلمات
رفيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة والقاه بين الإعجاب والتصفيق
الشديد . وبعد انتهائه قدم له نائب الأمير ساعة ذهبية اثرية ثمينة
وتبرع حضرة العربي الكريم عبد المجيد بك محمد السعدى بمائة
جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف
حضرة الشاعر العربي عمر بك السعدى وألقى قصيدة عامرة انى
فيها على سمو الأمير لتعزيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من
أصبعه خاتما من الماس ووضع في أصبع الاستاذ القصرى وقدم له
سيادة السيد محمد أبو بكر مرغنى شيخ السادة المرغنية بمصر
خاتما من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندى غليش لوحة كتب
عليها اسمه بخطه الجميل وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية
أنشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن الكريم وأقبل المدعوون
وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتنهئة الشاعر .

انتهى ما نقلناه من المقطع . فليثأمله القارئ وليتصور اسم
شوقي مجردا من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل
منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر . .

وتم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون
كيف يشرفون أسعنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس
مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنشنا مثلها في
انصافها وفي الاخلاص للفن الذى تخدمه وتنشيط المواهب الفتية
التي تنهض اليه لولا أنها أثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة
المتلى . ففي فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (اكاديمية
كوتكور) يحكم في كل سنة بجائزة قدرها اثني عشر ألف فرنك
للسابق من الأدباء في باب من أبواب التأليف ، فأصاب جائزة السنة

المنصرمة فتى اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية الفها .
افيدري القارىء من هذا ارنست بيروشون ؟

نقلت الانباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم
الفرنسى يسأل عن شأنه فاذا المستول والسائل فى العلم به سواء .
راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فالفوها خلوا من كل
اشارة اليه او الى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعا فيه اسمه
بسلامة استفهام . ومضت الايام ونسينا خبره حتى جاء البريد
قلبت نظرى عنوان فى احدى صفحه هذه ترجمته « خير روايات
العام . يؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الاكاديمية الفرنسية » (١)
فتصغحت الجملة فاذا به صاحبنا بيروشون واذا هو مجهول هناك
كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونكل فى باريس « وكان
بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا الى يوم أمس جهلا
لما وان كان قد طبع فى الاقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص
.. ولم يكن احد من اعضاء المجمع يعرفه الا أن احدهم قرأ قصته
القدمة اتفاقا فامجبتها فقرأها لزملائه . وكان كثير من الادباء
النابيين بين طلاب الجائزة يوم أمس ولكن فاز استاذ القرية المتواضع
دونهم بمشعل النصر » .

فيا قوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب .
تلك لجانهم تعدل فى احكامها هذا العدل وتحبى كل ملكة مسالحة
للحياة وهم لا ياتمون بها مغمضين ولا يسلمون لها خاضعين ، فكيف
لو انها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لا تحسن غير المجاملة ولا
تحسن أن تجامل الا بان ترضى فردا لتقفى على أمة كاملة بالمقم
والافتقار ان فى ذلك لموعظة .

(١) جريدة الديلى كرونكل عدد ١٢ ديسمبر ١٩٢٠ .

وخاصة القول اننا عرفنا رأى القراء فى عملنا فقسمناهم الى
فريقين . فاما الذين يعجبون بشوقى لغير سبب معقول يفتىء الى
شعره فقد اسخطناهم ولا نسال الله ان يخفف سخطهم . واما الذين
يرجعون الى الاسباب فقد وثقنا منهم بالموازرة وكان اقلهم موافقة
من أرجا الحكم لنفسه حتى يرى . واننا لنعلم انه يرى ما يقنعه .

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان رأى الأولين يمثل
كتاب ورد اليها غفلا من التوفيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته :
« خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وامثاله : « صدقتم ولا هو بحاجة اليكم » .

ويمثل رأى الآخرين بيت لقينا به اديب مشهور فقال : ايه
يا فلان ، اليك بيتا يسير مسير الامثال :

شوقى تولاه عباس فاظهره واليوم يخيله فى الناس عباس

وجوابنا له : بل انه عصر يخمل عصرا ولاقيسة وهم تخفتها
صبغة حق . وانا لعلى الحق صامدون .

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سماسة شوقي : ما ترى في رثائه لمصطفى كامل ؟
انتقده ؟ قلت وماذا عساي ان انتقد ان لم انتقد الهراء والزيف
والشتات ؟ قال ان القصيدة آيته . قلت لقد هديتني هدايك الله
فما كنت اظنها آية لاحد من العالمين وما حبستها الا زلة اسقطته
فيها « مغالبة الشجون لخاطره » او داهية خانه فيها امكانه الذي
ما فتىء يخونه كما قال منها :

ماذا دهاني يوم بنت فعقني فيك القريض وخانني امكاني

وما دهاه الا العجز والفهاة والهرج . دهته اولا فاجبل
وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها في اربعين يوما ثم زاد كثيرا من
اياتها وغير وبدل فيها . ثم دهته ثانيا فجرى فيها على مادته من
التلفيق والعقم والزغل المموء . فاما وقد علمت انها الآية التي بها
تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده ، والمعجزة التي يستنصر بها دعائه
فبآيته فلندحض رسالته وفي معقله الحصين فلنكشِفَ وهنه
ونفضح مطاعنه ، وانها لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل وأى معقل
ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل اخسوى
من ذلك وأضعف ، وأضال في الضئولة وأسخف ، أراحه الله من
شعره بما أراح من أقلام نقاده فانه علم الله لم يزعم لهم بديهة وأن
كان يزعم بديهته في صباح ومساء ، ولا كد لهم خاطرا وان كان

خاطره منه في وصب وشقاء ، ولقد فات اصحابنا سمسرة شوقي ان خلافتنا معهم لم يكن خلافا على درجات الاجادة وخطوات السبق فتتقارب كلما اجاد شاعرهم في رايهم او خيب آمالهم واخلف ظنوتهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ثم على ادائه وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم درجة اخسها عندنا معدنا وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف كل العزوف ، كالمسحور كلما ازداد استحسانا لما هو فيه كان ابعد عن حالة الصحو والصواب وكالاعجمي كلما ابعن في فصاحته وبيانه استغلق على سامع الاعراب . وهذا هو الواقع في ما اخذناه وناخذ على شعر شوقي وهو بخاصة شأننا في الحكم على قصيدته هذه التي راينا بعض المفتونين يجلبها عن الانتقاد ويعجب من ان تعاب ، وهي لو يفقه من القصائد التي بصاب منها المذهب العتيق في مقاتله والشواهد التي يبحث عنها لابرار ماخذ . وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب فنبين مواقعها منها حتى يكون ان قصر النظر على قشورها راي غير رايه الاول فيها .

فالعيوب المعنوية التي يكثر وقوع شوقي واضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل ، ولكن اشهرها واقربها الى القلهون واجمعها لاغلاطهم عيوب اربعة وهي بالايجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالامراض دون الجواهر . وهذه العيوب هي التي صيرتهم ابعد عن الشعر الحقيقي الرفيع المترجم عن النفس الانسانية في اصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الرنجى من المدنية من صور الأبسطة والسجاجيد كما يقول ماكولى من نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الأنفة أثر ظاهر في هذه القصيدة قد لا تجده في غيرها من القصائد الا مزوينا او دقيقا عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر هذه القصيدة بهذا المسبار ان من نقائص الشعر ما لا يمنع ان يلمح له رواء معجب يستهوى البسطاء بل ربما زادته جمالا في الظاهر كالحلى المزينة فانها في الغالب اجمل

من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة
غالية .

(١) التفكك

فاما التفكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات
متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه
بالوحدة المعنوية الصحيحة إذ كانت الفصائد ذات الأوزان والقوافي
المتشابهة أكينر من أن تحصى فإذا اعتبرنا التشبيه في الأعارض
واحرف القافية وحدة معنوية جاز أذن أن ننقل البيت من قصيدة
الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو ما لا يجوز .
ولتوفية البيان نقول أن القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما يكمل
فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه
والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث إذا اختلف الوضع
أو تغيرت النسبة اخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة
الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته
ولا يغنى عنه غيره في موضعه الا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم
عن الكف أو القلب عن المعدة . أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منه
مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون
الهمج المتأبدن فانك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز وأقداره في تنسيق
عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا الا حيث تنزل بهم عمالة
الوحشية الى حضيضها الأدنى ، وليس دون ذلك غاية في الجهالة
ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية في الشعر فلم تجدها
فاعلم انه الفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد أو شعور كامل الحياة
بل هو كاشباح الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض أو كأجزاء
الحلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف
وأجهزة ، وكلما استفل الشيء في مرتبة الخلق صعب التمييز بين
أجزائه . فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها في اللون والتركيب

صالحة لان تحل في اى مكان من البنية التى هى فيها . فاذا ارتقيت الى النبات الفيت للورق شكلا خلافا شكل الجدوع وللالياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين اتمه فى اشرف المخلوقات واحسنها تركيبا وتقويما . وهى سنة تتمشى فى اجناس الناس كما تتمشى فى انواع المخلوقات ومصادق ذلك ما نشاهده من تقارب الاقوام المتاخرة فى السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعا على الناظر وهى حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة ولسها البحترى فى هجوه لعشر بنعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة حص اللحي متشابهو الالوان
لو يسمعون باكلة او شربة بعمان اصيح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت اقدارا وملامح وبدوات واطوارا حتى ليوشك ان يكون من المستحيل اتفاق اثنين فى هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الذهن ونزعته . وتقرب مما نحن بصدده فنقول انك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الادب الفيت تشابهها فى الاسلوب والموضوع والمشرّب وتمائلا فى روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت ان تسم القصائد بعناوين واسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من ان الاسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات، ورايتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر اعضائها فيقولون افخر بيت واغزل بيت واشجع بيت وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كان الابيات فى القصيدة حبات عقد تشتري كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها وهذا ادل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين ابيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكره وجفاف السنيقة فكانما القريحة التى تنظم هذا النظم وبصات نور متقطعة لا كوكب صلمه متصل الاشعة يريك كل جانب ويشير لك كل زاوية وشعبة،

أو كأنما هي ميدان قتال فيه ألف عين وألف ذراع وألف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة .

وإذا كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه ساقله أو وسطه في قمته ، لا كالبناء المقسم الذي ينبئك النظر إليه عن هندسته وسكانه ومزاياه .

وهاه كومة الرمل التي يسميها شوقي قصيدة في رثاء مصطفى كامل نسأل من يشاء أن يضعها على أي وضع فهل يراها تعود الأ كومة رمل كما كانت ؟ وهل فيها من البناء إلا أحقاد خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطع أطرافها أو يختلف مجراها . وتقريرا لذلك تأتي هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيد لها على ترتيب آخر يعتمد جد الاعتماد عن الترتيب الأول ليقراها القارئ المرتاب ويلمس الفرق بين ما يصح أن يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على قضاء نضيمه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها إلا أنها كما نرجو لا تضيع عبثا - قال شوقي أصلحه الله :

- ١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في ماتم والسفاني
- ٢ يا خادم الاسلام اجر مجاهد في الله من خلد ومن رخصوان
- ٣ لمانعيت الى الحجاز مشى الاسى في الزائرين وروع الحرمان
- ٤ السكة الكبرى حيال رباها منكوسة الاعلام والقضببان
- ٥ لم تالها عند الشدائد خدعة في الله والمختار والسلطان
- ٦ يا ليت مكة والمدينة فازتا في المحظين بصوتك الرنان
- ٧ ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا ما غاب عن قس وعن سسسحبان

- ٨ جار التراب وانت اكبرم راحل
ماذا لقيت من الوجوه الفلاني
- ٩ ابكى صباك ولا عاتب من جنى هذا عليه كرامة للجاني
- ١٠ يتساءلون ابا السليل قضيت ام
بالقلب ام هل مت بالسحرطان
- ١١ الله يشهد ان موتك بالحجبا
والجسد والاقدام والمرفان
- ١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فانت الباني
- ١٣ بالله فتش عن فؤادك في الثرى هل فيه آمال لنا واماني
- ١٤ وجدانتك الحي المقيم على المدى ولرب حي ميت الوجدان
- ١٥ الناس جار في الحياة لغاية ومفصل يجري بغير عنان
- ١٦ والخلد في الدنيا وليس بهن عليا المناصب لم تتج لجبان
- ١٧ فلو ان رسل الله قد جبنوا لما
ماتوا على دين ولا ايمان
- ١٨ الجسد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لهما الاخلاق كالعنوان
- ١٩ واحب من طبول الحياة بلة
قصر يريك تقاصر الاقصران
- ٢٠ دقائق قلب المرء قائمة له ان الحياة دقائق وثوان
- ٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر ثان
- ٢٢ للمرء في الدنيا وجم شئونها ماشاء من ربح ومن خسران
- ٢٣ فهي الفضاء لراغب متطلع وهي المصيف لؤثر السلوان
- ٢٤ الناس غاد في الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهاني
- ٢٥ ومنعم لم يلق الا لذة في طيها شجن من الاشجان
- ٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان
- ٢٧ يظاهر الغدوات والروحوات والخطرات والاسرار والاعلان

- ٢٨ هل قام قبلك في المدائن فاتحا غاز بغير مهند وسنان
 ٢٩ يدعو الى العلم الشريف وعنده ان العلوم دعائم العمران
 ٣٠ لفوك في علم البلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
 ٢١ ما احمر من خجل ولا من ربة لكنما يبكي بدموع قان
 ٣٢ يزوجون نعشك في السناء وفي السنى
 فكانتما في نعشك القمران
 ٣٣ وكأنه نعش الحسين بكر بلا يختال بين بكى وبين حنان
 ٣٤ في ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن احسان
 ٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
 وجلالك المصنوق يلتقيسان
 ٣٦ سُقت لمنظر الجيوب عقال
 وبكتك بالدمع الهتسون غسوان
 ٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم
 اذ ينصبتون لخطبة ويسان
 ٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى بعد المنابر ام باى لسان
 ٣٩ فلو ان اوطانا تصور هيكلنا دفنوك بين جوانح الاوطان
 ٤٠ او كان يحمل في الجوانح ميت حملوك في الاسماع والاجفان
 ٤١ او صيغ من غرر الفضائل والعلی
 كفن لبست احاسن الاكفان
 ٤٢ او كان للذكر الكريم بقية
 لم تات بعد رثيت في القرآن
 ٤٣ ولقد نظرتك والردى بك محقق
 والداء ملء معالم الجثمان
 ٤٤ يفي ويطفى والطبيب مضال
 فنظ وساعات الرحيم سر دران

- ٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها
 دمع تصالح كمد وتملى
 ٤٦ تلى وتكتب والمشغل جملة
 ويداك فى القسطاس ترتجفان
 ٤٧ فحشت لى حتى كانك عاندى
 وأنا الذى هسد السقام كيانى
 ٤٨ ورايت كيف تموت أساد الشرى
 وعرفت كيف مصارع الشجعان
 ٤٩ ووجدت فى ذاك الخيال عزائمها
 ما للمنسون بدكهن يدان
 ٥٠ وجعلت تسألنى الرثاء فهاكه من أدمى وسرائرى وجناتى
 ٥١ لولا مغالبة الشجون لحاطرى لنظمت فيك يتيمة الأزمان
 ٥٢ وأنا الذى أرئى الشموس اذا هوت
 فتعسود سيرتها من الدوران
 ٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
 وتجل فوق النسييرات مكاتى
 ٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فحقنى
 فيك القريض وخائنى امكانى
 ٥٥ هون عليك فلا شيمات بميت
 ان النيسة غاية الانسان
 ٥٦ من للعسود بميتة بلفتها
 عسزت على كسرى اتوشروان
 ٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
 فهل استرحت ام استراح الشكائى
 ٥٨ يا صب مصر ويا شهيد غرامها
 هسذا ترى مصر فنسم بامان

- ٥٩ اطلع على مصر شبابك عاليا
والبس شبابك الحور والولدان
٦٠ قلعل مصر من شبابك ترقدى
مجندا تنيه به على البلدان
٦١ فلو ان بالهرمين من عزماته
بعض النساء تحرك الهرمان
٦٢ علمت شيان الدائن والقسرى
كيف الحياة تكون فى الشـبابان
٦٣ مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر ابر على عظمـامك حان
٦٤ اقسمت انك فى التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

كذلك انتظمت لشوقى مرثاة فى مصطفى كامل وسماها قصيدة
لأنها لم تأب أن تستقر فى قرطاس واحد ، ولقد كان احرى بها أن
تسمى اربعة وستين بيتا منظومة فى كل شيء او فى لا شيء . فاعتبرها
أيها القارئ على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر اربعة
وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تضر حسنة كانت لها بل لعلها
ربحت وعادت احسن نسقا واقرب نظما - قال شوقى ايضا :

- ١ المشرقان عليك ينتحبـان
قاصصيهما فى ماتم والسـدان
١٤ وجدانك الحى المقيم على المدى
ولرب حى ميت الوجـدان
٢١ فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالدكر للانسان عمر ثان
٦٤ اقسمت انك فى التراب طهارة
ملك يهاب سؤاله الملكان

- ٢٧ يا ظاهر القدوات والروحات والخط
 سرات والاسرار والاعمالان
 ٩ ابكى صباك ولا اعاتب من جنى
 ههنا عليك كرامة للجسماني
 ١٩ واحب من طول الحياة بذلة
 قصر يريك تقصاصر الاقصران
 ٥٦ من للحسود بميتة بلغتها
 عسزت على كسبرى انوشسروان
 ٣٦ شقت لنظرك الجيوب عقائل
 وبكتك بالسمع الهتون غوان
 ٥٥ هون عليك فلا شمات بميت
 ان المنيعة غايصة الانسيان
 ٢٠ دقات قلب المرء قاتلة له
 ان الحياصة دقائق وثنوان
 ١٣ بالله فتش عن فؤادك في الثرى
 هل فيه آمال لنا وامانى
 ٦٠ فاعل مصرا من شبابك ترتدى
 مجندا تتيه به على البلدان
 ٤٢ ولقد نظرتك والردى بك محقق
 والناء ملء مصاليم الجثمان
 ٤٤ يبنى ويطنى والطبيب مضلل
 قنط وساعات الرجيل دوان
 ٤٩ ووجدت في ذاك الخيال عزائما
 ما للمنون بدكهن يمدان
 ٦١ فلو ان بالهرمين بن عزماته
 بعض المضياء تحرك الهرمان
 ٤٦ تملى وتكتب والمشاعل جملة
 ويداك فى القسطاس ترتجفان

- ٤٥ ونواظر العواد عنك أمالها
دمع تماليج كتمه وتماني
- ٤٧ فهششت لي حتى كانك عائدي
وانا الذي هد السقام كيـماني
- ٥٠ وجعلت تسالني الرثاء فهلكه
من آدمي وسرايري وجنـماني
- ٤٨ ورايت كيف يموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصارع الشجعان
- ٥٤ ماذا دعاني يوم بنت فعقـسني
فيك القريض وخانني امـسكاني
- ٥٢ وانا الذي ارثي الشمس اذا هوت
فتعود سيرتها من السدوران
- ٥٣ قد كنت تهتف في الوري بقصائدي
وتجمل فوق النيرات مكاني
- ٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطري
لنظمت فيك يتيمة الازمان
- * * *
- ٥٨ يا صلب مصر ويا شهيد غرامها
هنا نرى مصر فنسم ياملن
- ٦٣ مصر الاسيفة ريفها وصعيدها
قبر ابرر على عظامك حان
- ٢٤ في لمة الله الكريم وبـره
ما ضم من عرف ومن احسان
- ٤١ لو صيغ من غرر الفضائل والعلـى
كفى لبست احاسن الاكفـان
- ٤٠ او كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاـجفان

- ٤٢ و لو ان اوطانا تصور هيكلا
دفنوك بين جوانح الاوطان
- ٤٢ او كان للذكر الحكيم بقية
لم تات بعد رثيت في القرآن
- ٢ يا خادم الاسلام اجر مجاهد
في الله من خلد ومن رضوان
- ٦ ياليت مكة والمدينة فازتا
في الحفطين بصوتك الرنان
- ٧ ليرى الاواخر يومذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سسحجان
- ٢ لا نعت الى الحجاز مشى الاسى
في الزائرين وروع الصرمان
- ٤ السكة الكبرى حيل رباها
منكوسة الاعلام والقضبان
- ***
- ٨ جار التراب وانت اكرم راحل
ماذا لقيت من الوجسود الغلى
- ٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت ام استراح الشانى
- ١٠ يتساءلون ابالسلال قضيت ام
بالقلب ام هسل مت بالسرطان
- ١١ الله يشهد ان موتك بالحجى
والجسد والاقدام والعرفان
- ١٨ المجيد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لها الاخلاق كالعنوان
- ١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم
في هذه الدنيا فانت البانى

- ٢٨ هل قام قبلك في المسائن فاتحنا
فلز بفجر مهندس وسنن
٢٠ يدعو الى العلم الشريف وعنده
ان العلوم دعائم العمران
٢٢ علمت شبان الملائن والقوى
كيف الحياة تكون في الشبان
١٦ والخلد في الدنيا وليس بهين
عليها المناصب لم تتج لجبان
٢٣ فهي الفضلاء لراغب متطلع
وهي المضيق لؤثر السلوان
١٧ ولو ان رسل الله قد جبنوا
لما ماتوا على دين ولا ايمان
٣٠ لفسوك في علم البلاد منكسا
جزع الهلال على فتي الفتيان
٢١ ما احمر من خجل ولا من ربة
لكنما يبكي بنمـسـع فان
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٢ يزجون نعشك في السناء وفي السنى
فكانما في نعشك القمران
٢٢ وكأنه نعش الحسين بكربلا
يختسأل بين بكى وبين حسان
٣٧ والخلق حولك خاشعون كهمهم
اذ ينصتون لخطبة ويبين
٢٨ يتسائلون باى قلب ترتقى
بعد المنابر ام باى لسان
٥٩ اخلع على مصر شبيبك حاليا
والبس شبيب الحسور والولدان

- ٥ لم تألها عند الشدائد خدمة
في الله والمختار والسلطان
- ١٥ الناس جار في الحياة لقاية
ومفضل يعزى بغير عنان
- ٢٥ ومنعم لم ياق إلا لينة
في طيها شجن من الاشجان
- ٢٢ للمرء في العنينا وجم شئونها
ما شاء من ربح ومن خسران
- ٢٤ والناس غاد في الشسقاء ورائح
يشقى له الرحماء وهو الهاني
- ٢٦ فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سسسيان
- فانظر أيها الفاريد الى هذه المراتة هل ترى بينها وبين سابقتها
من تفاوت ؟ على اننا قد تناولنا الأبيات مفرا كما بدرت لنا ولم نتحر
الاقصاء في الترتيب . ولو أننا غيرنا بعض الضمائر التي تعلق الاسم
على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التي تصل
الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما لم يكسب يجتمع بيت من
القصيدة على بيت . وانما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال
القارئ نفسه : هل قرا في الشعر أشد تفككا منها ؟ فعلى حسب
الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي وهل هي نبتت
من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل
الوهاد والنجاد أو تقطرات من عقل ناضب ينبض بالقطرة بعد القطرة
بخلع الضرس وبخلع النفس فتاتي كالرشاش لا يتولد منه إلا الوحل
واليبس ؟
- وقبل ان نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية
ننبه من يستبهم عليه الامر الى اننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الاقبيسة
المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد ان يشع
الخطاير في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كما اسلفنا
بالاشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا في هذه
القصيدة .

(٢) الاحالة

اما الاحالة فهي فساد المعنى وهي ضروب فمنها الاعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر من المعقول او قلة جدواه وخلو مفزاه وشواهدهما كثيرة في هذه القصيدة خاصة .

فمن ذلك قوله :

السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس لانها لا تقام على أرجل وانما تطرح على الارض كما يعلم شوقي . اللهم الا اذا ظن انها اعمدة تلغراف . على انها لو كانت مما يقف او ينكس لما كان في المعنى طائل اذ ما غناه قول القائل في رثاء العظماء ان الجدران او العمدة مشلا نكست رؤسها لأجله ؟

ومنه قوله :

ان كان للاخلاق ركن قائم (في هذه الدنيا) فانت البقي

وهذا بيت لو جرى المدح والثناء كله على سننه وانتظم النطق والاداء اجمعه على طريقته ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئاً وكما كان على من يؤتى هذه المقدرة من المنطق ضمير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام في كل لغة ولاي قصد انما يحتاج اليه للدلالة على معنى معين او وصف يطابق موصوفه فان لم يكن كذلك فهو وبهران المحموم وهتر المجنون سواء ، والشعر اذا لم يصح ان يقال في انسان

معلوم أو صبح أن يقال في كل إنسان : في السياسي والعالم والأديب والواعظ والصانع ، فهو الهديان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟ أيفهم أنه وحده هو الباني لكل وكن للأخلاق في هذه الدنيا ؟ إذن فماذا يقال عن النبي أن قيل هذا عن الزعيم السياسي ؟

وهل لا يصح حينئذ أن يقال هذا القول في قائد الحروب وفي جوابة الأفاق وفي خطيب المحافل وفي التاجر السري والوزير المحنك والمرابي المرشد والمخترع الحاذق في كل إنسان بل في الناس جميعا بل في مخلوقات الله وكائناته طرا من حى وثابت وجامد ؟ فإنه على كل وجه صرفته قول خلا من الصدق والمداول سواء أرثيت به حجرا أم رثيت به كونفوشيوس الذي دان بذهبه آلاف الملايين منذ الوف السنين .

ولا جرم فإن كونفوشيوس وحده صاحب شريعة في قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ (هذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيما سياسيا يوقظ هذه الأمة فلو قيل أنه موقظ كل نفس بمصر في عصره لما كان هذا حقا إذ كم في مصر من رجل أبغظه ما أبغظ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من أناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا !

فإذا زيد على ذلك أنه موقظ كل نفس بمصر في كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فإذا لم يكتف بهذا وقيل عنه أنه موقظ كل الناس من جميع الأمم في جميع العصور فالأمر شر من اللغو وأقبح من السفه . هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضة السياسية فما ظنك إذا خرج القائل من هذه الدائرة إلى دائرة الإصلاح الأخلاقي فزعم أن ليس للأخلاق ركن قام في هذه الدنيا إلا وهو من بناء رجل ولد في أواخر القرن التاسع عشر ، وأنها من بنائه قبل مولده وخيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟

أذن يكون بكم المعجاوات خيرا من شعر الأدميين كما قلنا في
فصل مضى .

ومن الإحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك في الثرى
هل فيه آمال لنا وأمانى

لو سأل : هل في قلبك المدفون في الثرى آمال لنا وأمانى
لاغتفرت له هذه الثروة على قلة محصلها وتفاهة مفزاها . أما الذي
يسأل أن يفتش فلا يصح أن يسأل هل في قلبك آمال وأمانى إلا في
معرض التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يمشي : يا هذا
الذي يمشي هل أنت حي ؟

ولقد قال حكيم :

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي
فكل من يفرض فيه أنه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، بله
كبار النفوس وبمعيدي الهمم ومنها :

فلو أن رسل الله قد جبنوا لما

ماتوا على دين ولا إيمان

الصواب في اظهار فضل الشجاعة أن يقال أنها لازمة في اصقار
المطالب واقترب الفايات كما يقال في اظهار فضل المال أن الإنسان
لا يقدر على أن يشتري ابرة بغيره ولا يقال في الدلالة على شدة
لزومه وبيان الحاجة اليه أنه لا يقدر على شراء مدينة بدونه .

ولو قال شاعرنا أن احقر الناس خليف أن لا يكسب قوته القفان
بغير الشجاعة لكان لقوله معنى ، أما الاستشهاد على قدرها
واستجاشة الناس لها بأنها ضرورية لمن كان رسولا ففي وسع الناس
قاطبة أن يقتنعوا بما دون الرسالة فلا يحتاجون الى الشجاعة . أما
أن قيل ان الشاعر يعني ان الرسل الذين تمدهم قوة الله وتزيدهم

روح الله لابد ان يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو افرغ منه وهل اذا سمعت ايها القارىء رجلا يخبرك ان المصارع المؤيد بالمنة ومثانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان قويا اكنث تظنه يخبرك بشيء يستحق ان ينظم في بيت شعر ؟ فهذا الذى يخبرنا به شوقى ان صبح انه يعنى ما افترضناه ومن احالاته :
فهى الفضاء لرافب متطلع وهى المضييق لمؤثر السلوان



والذى يقوله الناس - وشوقى منهم اذا شاء - ان فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تازم بالطامع المتدفع ،
لبعد آماذ همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع السالى
ينفسح له سم الخياط ويرحب به جحر الضب !!

فاما القول بان المطامع تفسح الدنيا والبلوان يخرجها فرأى
لا يخطر الا على فكر كفكر شوقى المقلوب .
ومن هذه الاحالات هذه الفهامة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها

نعمى الحياة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف اما الصبر على نعمها فعاذا
هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا ان المصائب والخيرات سيان فلا غرابة
في ان يصبر الانسان على النعمة وان تيطره المحنة . هكذا يقول
شوقى وما اصدقه فاننا لا نرى منحة هي اشبه بالمحنة من هذا
الشعر الذى انعم الله به عليه . والله في خلقه شئون .
ويقول :

يزجون نعشك في السناء وفي السنى

فكانمسا في نعشك القمران

وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى في
ذلك النعش !!

ولا يقال ان صاحبنا اراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين لان السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو إنه قال « كانما في نعثك القمر » أو « كانما في نعثك الشمس » لما نقص في الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمري كيف يكون النعش في السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى في النعش ؟ وما هذا الرثاء الذي لا يتم الا بالقضاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التي تزلزل الافلاك . فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم في كل حالة بأنه كالشمس والقمر وبين الطفل الذي يعدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر فالمدسة سكر والكتاب سكر وأبوه سكر وبيته سكر . كذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم شمس وقمر ولا اختلاف بين امرئ وامرئ ولا بين حالة وحالة في جميع هذه الأوصاف . ويقول عافاه الله :

وانا الذي أرثي الشموس اذا هوت

فتعسود سسيرتها من الدوران

اي والله ظاهر . لكن الشموس والأقمار والنجوم التي تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفي هذه نظر . ويقول :

يا صلب مصر ويا شهيد غرامها

هسنا ترى مصر فتم بامان

ونقول انما يرثي بهذا البيت غريب جاهد في سبيل مصر وهو بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العزاء ان نتعلل بأنه سينام في ثراها . ومن السخف ان يقال لرجل مات في وطنه : احببت بلدك فتم في ثراه اذا كان لا يدور بخلد أحد انه سيدفن في غيره . ومن مبالغاته التي تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو ان بالهرمين من عزماته بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله اراد المقابلة بين الشباب في البيت المتقدم والهرمين في
هذا البيت ونحن ننمى على هذه المبالغة دائما انها لا تدل على شيء
فهب انه قال :

فلو ان بالقطبين من عزماته بعض المضاء تحرك القطبان
او قال :

فلو ان بالشطين من عزماته

بعض المضاء تحرك الشيطان

الى آخر المثنيات التى تسكن ولا تتحرك . ثم هب انه قال البيت
في رثاء مصطفى او رثاء باستور او في رثاء ابن زريق او مشهور
كائنا من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ومتى كانت الأوصاف لا تتغير
موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟
ويقول :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها

قبر أبسر على عظامك حان

مصر ايها القارىء ... ولا تخطيء فتحسبها القاهرة المعزية فاتها
مصر بريفها وصعيدها - مصر كلها ما هي الا قبر واحد . فلهذا
شاعرها يرى رجلا احيا نهضة بلاده فيجعلها قبرا ، ولاى ضرورة
وليدل على ماذا ؟ لا شيء .

وقد اجتزاننا بهذه الابيات ، لا لانها كل ما في القصيدة من شواهد
الاحالة واعوجاج الطبع ، بل لانها ذات طعم وان كان رديئا ممجوجا
وما سواها تافه لا طعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة ان القصيدة
بجملتها بنت الاحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فانما
اكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان .

(٢) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني وأيسره على المقلد الاقتباس المفيد والسرقة وأعر أبيات هذه المرتاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فأرفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالدكر للأنسان عمر نان

مقتضب من بيت المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما فاته وفصول العيش اشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كهمهم
اذ ينصـون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبي الحسن الأنباري فوق تشويهه وذلك حين
يقول في رثاء الوزير أبي طاهر الذي صلبه عضد الدولة :

كانك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاة

وتقول شوهه لان الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به
وانما يفعل ذلك اللاعبون في المعارض المتنقلة.

وقوله .

او كان يحمل في الجوانح ميت
حملوك في الاسماع والاجفان

ماخوذ من بيت ابن النيه في قصيدته التي لم تبق صحيفة لم
تستشهد بمطلعها :

الناس للموت كخييل الطراد
فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت في التراب ولو انصفوا ما كنت الا في صميم الفؤاد

على ان المعنى مرذول بلغ من ابتداله وسخفه ان تنظمه «عوالم»
الافراح في اغانيها وحسب الشاعر ان لا يكون ابلغ ولا ارفع من
القائلات « احطك في عيني يا سيدي واتكحل عليك » وانه ليقول
كما قلن :

ولو ان لي علم ما في غد خباتك في مقتلتي من حذر
وقوله :

او كان للذكر الحكيم بقية لم تات بعد رثيت في القرآن
منظور فيه الى بيت المعري :

ولو تقسدم في عصر مضى نزلت
في وصفه معجزات الاى والسور

وهذا البيت :

او صيغ من غرر الفضائل والاعلا
كفن ليست احسن الاكفان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ريا حنوطه
ولكنه ذاك الثناء المخلف

فما أضاف شوقي الى هذه المعاني سوى انه جعل الاكمان تصاغ
وانه تحذلق فقال :

فلو ان اوطانا تصور هيكلا
دفنوك بين جوانح الاوطان

يريد جسدا . كانه يحسب ان الاوطان ان لم تصور جسدا لم
يدفن الففيد النابه فيها !!

وربما سرق شوقي ما لا يستحق ان يسرق فهذه شطرته :

لما نعت الى الحجاز مشى الأسى
اليست هي شطرة الشريف في إحدى همزياته :
لما نعاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هي من قول
الشريف ايضا « ان المنية غاية الابداد » وكان القافية صدته عن
انتهاج الشطرة كلها فماد اليها في رثاء فريد اذ قال :

من دنى او نأى فان المنايا فاية القرب او قصارى البعاد

فاتم الفتيمة في قصيدتين . وسنعود الى بيان سرقاته في فصل
على حدة .

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعمري بالأعراض دون الجواهر
وهو العيب الرابع الذى اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة
الدالة على أنماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق

بين الخطأ واللعب والسخف والمبث وكل منهما سبب يمت به الى الآخر اذا تشابها في الصدور عن طبع اعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفطن الى الاحالة ولكن الفطن الى هذا الضرب من المبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كما يمسر على الاطفال ادراك رزاة الرجل انظر ايها القارئ الى هذا البيت :

دقات قلب المرء قائمة له ان الحياة دقائق وثوان

فانه بيت الفصيد في راي عشاق شوقي فعلى اى معنى تراه يشتمل ؟ معناه ان السنة او مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم اربع وعشرين ساعة والساعة ستون دقيقة يكون في عرف قراء شوقي قد اتى بالحكمة الرائعة ؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هي البراعة التى تعجبنا وبها هدانا الى واجب الضن بالحياة ... وهنا يبدو للنظر في قصر المسافة التى يذهبون اليها في اعجابهم وان بلاغتهم الزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة والقلب ايام كان يقاس الوقت بالساعات المالية او الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟

ابله العوارض يقدر الاحياء نقاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذى ينظم في الحياة الانسانية على علاقة سطحية باختراع طارئ ؟ ولقد قلنا في نقدنا لثرثاء فريد « ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ او لغة لانها حقائق الانسانية باسرها قديمها وحديثها عربيها واعجميها » ونعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . وبقيتنا ان احدهم لو سمع

فأصحا يعظه في موقف جد - وأى موقف جد أجد من وراء
 النابفين آآ - فيناديه يا أخى من وقتك لأن قلبك ينبض كما تنبض
 الساعة لأغرب في الضحك ولخطر له أن صاحبه بخامره الشك في
 عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرا يطرب له ويكبر قائله ،
 وما ذاك إلا لحسابه أن الهزل جائز في الشعر فكاهة وحكمة ، ولو
 علم أن الشعر جد كجد الحياة لما تمثل بما حقه أن يضحك منه
 ويلهو به .

وكهذا البيت أخواه هذان

لغوك في علم البسلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيان
 ما احمر من خجل ولا من ريبة لسكنما يبكي بسمع قان

وللعلم جوهر وعرض فأما الجوهر فهو ما يرمز اليه من مجد
 الامة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية .
 وأما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لها قيمة فيما ترفع
 الاعلام لأجله . فشوقي يولع بهذا العرض إذا هو نظم في العلم ولا
 يعنيه ذلك الجوهر . ولا ريب أنه ما كان يذكر لف نعش المرثي
 بالراية المصرية لو لم تكن حمراء كي يكون لونها دمعاً ودمعها دماً
 منزوفاً . وليست هذه هفوة أو فلتة بدرت منه هنا بل هي دأبه
 كلما وصف علماً ، فقد قال في وصف الهلال الأحمر :

كان ما احمر منه حول غرته دم البراءة زكى شيب عثمانا
 كان ما ابيض في انشاء حمرة نور الشهيد الذي قدمنا ظمنا
 كانه شفق تسمو الميون له قد قلد الافق يا قوتا ومرجانا
 كانه من دم العشاق مختضب يشير حيث بدا وجدا واشجانا
 كانه من جمال رائع وهدي خنود يوسف لماعف ولهانا
 كانه وردة حمراء زاهية في الغلقد فتحت في كفر صوانا

فهو يمثل راية الامة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وبالساقوت

والمرجان في لون الشفق ، حتى الدم اذا ذكره يكون خضابا لشبه
او دم عشاق . فيا للطاقة الشعرية !! وليته سلم بعد ذلك من
عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدودا من حيث خلق الله له خدين
ولم يجعل للراية قرّة ولا قرّة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس
اذ هو قد وصف هلالا ابيض في اثناء حمرة والهلال الاحمر على
عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو انه تنبه اليه - ومع هذا فاني
لا قسم ان صاحبنا رص هذه (الكائنات) في آياته الستة ويخيل اليه
انه لو تقدم به الزمن الى عهد عمر بن الخطاب لقال اشعركم من يقول
كان وكان لا من يقول من ومن ..

ومن الغباء العجيب ان يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة
على نعش بطل من أبطال الوطنية فيسرع بنفى الخجل والريبة عن
احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى ان يظن بها الناس
الظنون وهي بريئة عفة !! اذما الذي يخطر على باله الخجل والريبة
في هذا المقام وهو يرثى الرجل الذي يخاطبه قائلا

ان كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا فانت الباقي .

ولكنها الغباوة لا تعلم اذا بدأت اين تنتهي بصاحبها !! وليت شعر
شوقي اذا كانت رايتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول !!
اكان لا يرى للنعش بها اى معنى لانها لا تبكى بدمع احمر !! .

تلك آية شوقي ومعجزته : آية السيمياء . معجزة الشعوذة .
كومة الرمل كما قلنا في أول المقال . ولقد اتم فيها امتساخ الطبايع
بمخالفة الواقع فجاءت معرضا مختارا من الاغلاط ، وسلا مرقعا
من النشوز والاختباط . وما كان يسمعه ان يخرج نفسه خلقا
آخر فيأبى بالمستوى من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم في
اغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسمعه ان يعلم ان السكة
الحجازية لم تصل الى مكة فلا يقول

**لما نعت الى الحجاز مشى الاسى في الزائرين ودوع الحرمان
السكة الكبرى حيال رباعها منكوسة الاعلام والقضبان**

والحرمان في الحجاز هما الحرم المدني والحرم المكي وكل قارىء
للصحف ولا سيما لندن وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيال
وبى مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هي حتى الساعة

وكان في مقدوره ان يعلم ان الحسين لم يشيع في موكب حاشد
كما شيع مصطفى فلا يقول في وصف نعشه

**وكانه نعش الحسين بكربلا يختل بين بكى وبين حنان
وقد رايناه يغير على قصائد الشريف اعتراه لم يفقه رائيته التي
يقول منها في مصرع الحسين .**

**وخر للموت لا كف قلبه الا بوطيء من الجرد المحاضير
كان يبيض المواضى وهي تنهب نار تحكم في جسم من النور
تهابه الوحش ان تدنو لمصرعه وقد افام ثلثا غير مقبور**

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة . ومن العامة من يستظهر
خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى اتخن بالجراح واته - لا حيا الله
قاتليه - مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة واكثر من أربعين ضربة ثم
دبس بالخييل ورض جسده واحتز راسه وطوفه ابن زياد الكوفة .
ثم ارسله الى يزيد في خبر فاجع لا حاجة الى تفصيله . وانى لمن
يموت هذه الميتة ان تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه في المواكب !!
ولا تقول يختل بين البكاء والحنان فما من احد ينسب الاختيال
الى النعوش الا من كان نعشا مختلا كهذا الذي لا يميز بين تشييع
قتيل الى قبره وزف عروس الى خدرها . فان زعم انه يقصد
موكب عاشوراء الذي يحتفل به الشيعة كل سنة تذكارا لوفاة
الحسين فالخطا اعظم واقبح لاننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب

فما رأبناهم يحملون نعشا وانما يقتادون جوادا مسرجا ملجما لانهم
ازكن من شوقى وادرى بما ينبغى ان يذكر به يوم الحسين اذ كانوا
يحتلفون بمصره فى ميدان حرب لا يمدفنه فى الثرى .

كان يسعه ان لا يقول ذلك كما كان يسعه ان يسكت ولكنه الهم
ان يستقصى عاهات الشعر ما يتداركه منها ، اذا شاء ، وما لا
يتداركه . وان يجتهد فى ذلك كانه يكافا على مجهوده وهو فى الحقيقة
يكافا المكافاة التى يستحقها فانه بهذه العاهات ينفق شعره بين
الجهلة والسذج ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع
منه الاستحسان الا ان يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة او يقال
هذه انه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون .

ولا ندع هذه القصيدة التى ملاها شوقى بما يسميه حكمة
وبما يتسامى به الى مضاهاة المتنبى ومضاربة المعرى قبل ان
تكشف عن فشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين
يؤمل صلاحهم واقتناعهم وان نروى تلك البديهييات واشباه
البديهييات التى يتصنع شوقى بها الحكمة والرشد لعله يربحنا من
هبنقيات ويربح نفسه من عبء لا طاقة له به .

فالحكمة فى الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهى من اصعب
الشعر سرا ما وابعد مرتقى لا يسأس قيادها لغير طائفة من الناس
توحى اليهم الحقائق من اعماق الطبيعة فتجرى بها السنتهم آيات
تنفج ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى احدهم بالكلمة العائرة
من عفو خاطره ومعين وجدانه فكانما هى فصل الخطاب ومفرق
الشبهات تستوعب فى احرف معدودات ما لا تزيده الاسفار الضافية
الا شرحا وامتدادا وتسممها فتشع فى ذهنك ضياءها وترتك كيف
يتقابل العمق والبساطة ويألف القدم والجدة : قدم الحقيقة كائنت
ما تحلوها الحياة المتقلبة وحدة النظر الثاقب والنفس الحية التى
تطبع كل مرئى بطابعها .

فهى تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ
الأزل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبيتى المتنبي اللذين
يمدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

**تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقع
ولن يغالط في الحائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع**

فالجاهل من لا يعى والغافل من يعى لو شاء ولكنه لا ينتبه
والغالط نفسه وأع منتبه يحجب بيديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء
هم الذين يفنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذى قسمه
من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد أنسانا غير هؤلاء
تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة إلا
نقص بقدره من المعنى .

وتارة يلمع الى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكان
قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن
العبد :

لعمري إن الموت ما أخطأ الفتى لك الطول (١) المرخى وثنياه باليد

وهذا أجمل ما يقال فى بحبوحة العمر المرتبهة بالأجل

وطورا تصل طرفى الفكرة فتعرضها عليك من جانبها كما قال
البحتري

متى أرت الدنيا نياهة خامل فلا ترتقب إلا خمول نبيه

وطورا تصدع برأى يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز
تغرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبي المأثور

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فامسكه لا يظلم

أو كقول أبى فراس

ما كل ما فوق البسيطة كافيا فإذا قنمت فكل شيء كافى

(١) الطول : حيل يطول للدابة لترعى والثنى الطرف .

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع أو يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس

بضات الطير أكثرها فراخا وإم الصقر مقلات نرور

فليس الشأن كذلك في كرائم الطير فحسب بل هو مما يترد كثيرا في كل نسج ونتاج .

ويقرب الشاعر الحكيم المعنى العويص والفكرة البعيدة فيوضحها بوضوح المألوفات كما صنع الأفوه الأودى بهذا البيت القل

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فقد حفيت الأقدام بحثا وتنقيا في علوم الاجتماع وكلت القسرايح تدبرا وانصاما في شئون الأمم وراقبت الدول على سنن شتى من الأنظمة والديساتير فما خرجت كلها بزيادة أو جزوا لا أصدق ولا أتم من هذه الحكمة التي اهتدى إليها هذا البدوي الناشئ في عصور الجهالة وأتاك لا تزن أمة بميزان هذا البيت الا كتت على ثقة من السداد والاصابة .

هذه هي الحكمة الصادقة وهي كما ترى غير قاصرة على إيراد الحقيقة المسلم بها وإنما هي الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصبية والقفطنة النافذة واللسان البليغ ، وبشر ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مشاعا للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتدلة أو مغشوشة معتملة . اشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ولا لسابق على ناقل ، اذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطئ النهر الغزير ،

وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى
والهجير ، واحمق ممر يحمر البئر على شاطئ النهر من يروح
ويغدو ينظم من اشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التي حفلت
بها كتب التمرينات الابتدائية . « كالعلم نافع والصدق منج والبركة
في البكور واحترم الاستاذ تتقدم وفي العجلة الندامة وفي التساوى
السلامة » وما الى هذه النصائح والامثال والحكم - ينظمها ليستشر
بالحكمة وليصيح من فوقها .

في دولة الشعر دون العصر وثلة

مفاخرى حكمى فيها وامثالى II

فهل يدري القارىء من صاحب الحكم والامثال المخور ؟ انه
هو شوقي ، ثم هل يدري ما حكمه وامثاله التي استتبت له بها
دولة الشعر ؟ هذه هي :

عليكم لواء العلم فالفوز تحته وليس اذا الاعلام خانت بتخال
والعلم في فضله او في معاخره ركن المالك صخر الدولة الخالى
يقل للعلم عند العارفين به ما تقدر النفس من حبواجل

بالعلم (تمتلك) الدنيا ونصرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارىء بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الاول
نحو « العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم لحفظ الدرس .
حلى النساء الذهب وحلى الرجال الادب » وليسأل نفسه ماذا زاد
عليها ملك الشعر المتفرد بدولته واى ميسم يبدو عليها من مياسم
نفسه وماذا من وحى الشامرية والهام البصيرة ونهية العبقرية
واصالتها ؟ اليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟

ومن اركان ملكه اعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات
فاكثر فليبتلق الوحي اناس حجبوا عن صفاء الشاعرية
وليسعدوا :

المحسنون هم اللبـاب وسافر الناس النفاية
ان القصاص اذا رمى بك القواعـد من نير
والمال لا تجنى ثمار رؤسـه حتى يصيب من الرأس مدبرا
الجـد غاية كل لاه لاهـب عند المنية يجزع المـفراح

سر في الهواء ولد بناصية السهـى

الموت لا يخفى عليه سـبيل

فلم ار غير حكم الله حكما ولم ارد دون باب الله بابا
وان البر ابقى في حياة وابقى بعد صاحبه وثابا
ومن يعدل يحب الله شـيئا كحب المال ضل هوى وخبا
وما الرزق محتجب حـرفة اذ الحظ لم يهجر المحترف
ما الدين الا تراث الناس قبلكم كل امرئ لاييسه تابع تال
ومن العقول جداول وجملامد ومن النفوس حرائر واماء

أرم النصيحة غير هائب وقمها

ليس الشجاع الراى مثل جبانـه

ولعمري لقد كانوا يقصون علينا ونحن اطفال حكاية تاجر الزجاج
مع الحمال وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان
يضحكنا ان نسمع التاجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال
واحدة فى اثر واحدة فيفهمه متشدا انه : « ان آل لك حد الراكب
مثل الماشى اول له بتفشر ، وان آل لك حد الفنى مثل الفقير اول
له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى اجرة « شيلة » حتى
راى شوقى ان يسمعنا نظما « ان آل لك حد الشجاع مثل الجبان
اول له بتفشر » فآمنا بخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه
من الاجرة الغالية !!

وهل علم احد ان المسافر اذا آب فقد آب قبل ان يقول
شوقى :

وكل مسافر سيؤب يوما اذا رزق السلامة والاياما
ام علموا الحق حتى اخبرهم به مستغربا جهلهم سائلا اياهم :
ليس الحق ان العيش فان وان الحي غايته الممات
ليس كذلك ام ماذا بالله ؟؟

ام حكم احد الاحلام الا حين علموا منه ان :
الحق ابلج كالصباح لناظر لو ان قوما حكموا الاحلاما

ومن امثلة حكمته المفشوشة المتملة قوله

لئن تمشى البلى تحت التراب به

لا يؤكل الليث الا وهو اشلاء

والبيت من قصيدة في شكبير . ومعناه ان جثة شكبير
استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها - اى
انه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبليها حتى ابلاها ولم يتلفها حتى
اتلفها ولم تفتت هي حتى تفتت . مهابة واجلالا . . . وانه لما
اكلها اكلها ولكن بعد تقسيمها كما ان الاسد لا يؤكل الا عضوا
عضوا . .

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والارض والسماء،
المحسن الى واحد من رعاياه بالتقدير والثناء ، المنعم عليهم بالذكر
والايما . . تصفيق متواصل . . لابل ضحك تتجاوب به الاصدااء،
على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعراء
وامير الشعراء .

فيا هذا . ان جثة شكبير ليست بموضع المظلمة منه لانها
في الحياة جسد تفوقه في الحسن والقوة اجساد كثيرة . وهي في
الموت رنات يبلى كما تبلى بقايا الاحياء من اكملها الى ادناها . ولو

جاء أن يعظم أحد بأن يقال أن الموت يتهيب جسده لكان ذلك اليق
بإبطال الحروب إذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على
أقرانهم . ولكننا مع هذا نرى المتنبي يقول في أبي شجاع .

من لا تشسابهه الأحياء في شيم

أعنى تشابهه الأموات في الرمم

وهو من تعلم محضاً الحروب وابن الكريهة وحلس الخيل كانوا
يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحقى
فخره الوحيد يمدح بأنه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟؟ وعلى أنه لا
معنى لأن يقال أن البلى تهيب أن يتمشى فيه إلا بعد تقسيمه لأن
تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل
إلا هو واشلاء لأن الشأن كذلك في كل مأكول فالفار أيضاً لا يؤكل
إلا وهو واشلاء والدجاجة لا تؤكل إلا وهي اشلاء بل حتى الأرز لا
يؤكل إلا وهو اشلاء ممضوغة وما من شيء يزدد لقمة واحدة فيما
نظن ويظن جميع الأكليين . وصاحبنا برئى شاعراً فيخلط هذا
الخلط فعافاه الله ؟ى نوع من أنواع العظمة يفقهه أن كان لا يفقه
العظمة التي يلتبسها منذ ثلاث قرن من الزمان ؟؟ وابن من تقدير
شكسبير من برثيه رثاء إذا صح فيه فإنه يصح في كل حيوان ؟؟

على أن لشوقي دون هذا الحضيض حضيضاً ينزل بالحكمة
إليه فيلحقها بوظيفة كتاب الإعلانات ويكلف الشعر أن يقول أ

احذر التهمة أن كنت فهم	أن عزرائيل في خلق نهم
واتق البرد فكم خلق قتل	من توقاه اتقى نصف الصل
اتخذ سكناً في طلق الجواء	بين شمس ونبسات وهواء
خيمة في البيد خير من قصور	تبخل الشمس عليها بالمرور

وتقول : ان كانت هذه حكمة وشعرا فلم لا يكون كاتب « احترس
من النشالين » و « ان اردت النزول اطلب من الكمسارى توقيف
القطر » نابغة يستملى الحكمة ويستتمد وحى الشعر ويرتجل
البلاغة ؟؟

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا ابياتا يجوز ان يكون معناها
مطروقا شائعا ويجوز ان يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها
الشاعر المطبوع فينتفث فيها حياته وكيف تمن للنظام المقلد كما هي
وتختارها من معان ورد مثلها في شعر المنبى الذى يقتفى شوقي
الره ويطمع ان يجاريه . وهذا بعضها :

لولا المشقة سساد الناس كلهم

الجود يفقر والاقدام قتال

الف هذا الهواء اوقع في الانف

فس ان الحماس مر المذاق

من اطاق التماس شيء غلابا

واقتصبا لم يتمسه سؤالا

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بهيت ايلام

لا يعجب مفسىما حسن بزه

وهل تروق دفينسا جودة الكفن

فهذه ابيات من رائع الحكمة تحمل في طواياها حجة الطبع
الدائمة وآية الفطنة البانغة ، وهي قد كان يمكن ان تقع لشوقي
من ذخيرة الاحاديث المشاعة فتسمعها منه كمادته في قفل هذه
الاحاديث منظومة فاذا هي مثلا : (الجود مفقرة والاقدام مقتلة .
الحماس مر المذاق . القوى مقتصب . من هان سهل عليه الهوان .
لا يرين الدليل حسن البرة) وهكذا عهدنا الامثال العامة فاذا شئت
ان ترون الحكمتين بعيران الصحين فكلاهما صحيح ، ولكن ليست

الصحة الواقعية هي ما نطلب من النفس المهمة والطبيعة المشرقة
والسريرة العميقة وأما المصدر الذي تبجست منه والشخصية
التي طبعتها بصورتها والقلب الذي خرجت من لدنه والحجة التي
صيرتها مقنعة شافية هي بفتنا من نجوى الإلهام وهي التي يرتوى
منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبي « لولا المشقة ساد
الناس كلهم » ثم يتم المعنى لأن هذه الشطرة التي لا تزيد البيت
صحة تزيده حياة وتنبتنا وحدها بأن في البيت حقيقة أقرب إلينا
وحجة الصق بنا وثمره أجدي علينا من الحقائق الرياضية المجردة
التي تمتحن بموازن الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة
بأنها « الف هذا الهواء » فهل ترى أصدق من هذا التعبير !! اليس
المتنبي قد لمس به سر كل تركيب في هذه الموجودات التي ليس كيانها
إلا عادة تأنفها زمنا ثم تتبدلها !! ومثل ذلك يقال في بقية الأبيات .

وصفوة القول أن الحكمة المبتدلة أسر ما يتعاطاه النظامون
لأنها صوغ متاع مشاع على حين أنهم لا يمسون الحكمة العالية
مساسا ولن يقساروها ولا اختلاسا . لأنهم لا يملكون جوهرها
ولا يقدرونه لو وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وإن اغتروا ببساطته
وسهولته . وربما خدع بعض الناس في بعض أقوالهم فخالوها من
قبيل الحكمة العالية لما يبهروهم من رنين صياغتها وبريق طلاها
فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين أن أرقى ما يرتقون
إليه أن يأتوا بكلمة مقبولة في شئون المعيشة وفرق بعيد وبون
شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية ، فأما الأولى فبنت
المران والمكابدة تقرا آلافا من أمثالها في كتب اللياقة ونصائح « أبالك
وحذار عليك » وأما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمره
التفوق في شمائلها المقدسة وضمائرها السرمدية . كتابها صفحات
الأكوان وسريرة الإنسان ومن ينابيعها تتفجر المعقائد والأديان
وتنبثق روح الرشد والبيان . الأولى لون من ألوان البيئة المكتسبة
والثانية قيس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة إن لا شك في غلبة الصنامة عليه
كالحريرى على ما اذكر حين يقول :

كل من الوجود يغلب صيدا غير أن الشباك مختلفات
ولكنها فلتات لا يقاس عليها

ولقد ذاع لشوقى بيت سوقى فظن انه سقط على كثر وطار
به كانه لا يصدق انه له أو كانه يخشى أن ينزعه لفرحته به وهو
وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان تولت مضوا في أثرها قدما

ثم كرر أيضا في قوله

وليس بعاصر بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول

ملك على الأخلاق كان بناؤه من نحت أولكم ومن صوانه

وكرره في نشيده وفي قصائد أخرى وكل هذا الفرع بمعنى
بعد من تحصيل الحاصل أن كان له مدلول ، فليس يقول لك
ما يستحق أن تصفى اليه من يخبرك بأن الأخلاق الصالحة ملاك
صلاح الاجتماع وقوام الأمم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون
عكسه ظاهر البطلان ويترد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر
البدهييات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية أو حقائق
التمرينات الأولية .

ورحم الله القنامة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس
في بائيته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب عجب عجب
لا تغضب يوما إن شتمت
بقسر تمشى ولها ذنب
والناس اذا شتموا غضبوا

الى ان يقول

النساقة لا منقار لها والوزة ليس لها قتب

وكثيرا في قصيدته من حكمة كهذه كان اقصى مناه ان يقال فيها انها سخيصة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هذا الطرف ولكنه يطمع بالسخف البحث ان يستأثر بدولة الحكم والامثال .

وقلنا ان كان للبيت مدلول ، لان البيت في الحقيقة لا مدلول له . فلو انك حدثت كلمة الاخلاق وجعلت مكانها اصغارا لما نقص من معناه شيء . لان هذه الكلمة لا تؤدي معنى محدودا في الدهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصدق والسخاء وحسن المعاشرة والوداعة والحلم ، وقد يفهم منها نقيض ذلك من الطباع كالعناد والمرااة والدهاء والبطش وهو ما يفهم احيانا من كلام الافرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوى الطباع البارزة والحيوية المتينة فاي المعنيين يقصد شوقي ؟ ان من الأمم ذوات الحيوية الغلبة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلا وهي مع ذلك من تأصل مادة الحياة فيها واحتوائها على بواصت القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الاتقراض العاجل او البوار . والتاريخ غاص بسير هذه الأمم . وان منها لما تحمد سجايه ثم لا تلفيه من القوة على نصيب واقر قليلا لنا شوقي ما غناه بيته ان كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو اسرائيل .

ولقد اضحكتنا مرة احد الثائرة الذين يتلقفون من الكلام ما لا يفقهون فقال لنا ان البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس الناس وان في ذبوع بيت شوقي لدليلا على قيمته . فقلت له يا صاح : اشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردي .

لا تقل اصلى وفصلى ابدا انما اصل الفتى ما قد حصل

فان كان لهذا الشعر قيمته فهنيئا لنا !! اننا امة من ثلاثة عشر مليون حكيم بل هنيئا للانسانية فان الشمس لا تطلع الا على الحكماء من اينائها .

رثاء الأميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الأستار ، وبقبر النبي المختار . أقسم
بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسيني
والضريح الزينبي ومقام السيد البدوي ومزار كل شريف من ولد
فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما أن دفنوا
بالأمس الأ نيرة ..

بهذا القسم ، أو على الأصح ، بهذه الأقسام استهل شوقي
رثاء للأميرة المحسنة فاطمة بنت اسماعيل . وهي منشور قوله :

حلفت بالمسسترة	والروضنة المعطرة
ومجلس الزهراء في الـ	حظائر المنصورة
مراقده السلالة الطـ	ييبة المطهرة
ما أنزلوا إلى الثرى	بالأمس الأ نيرة

ولولا أن الأمر أظهر من أن يحتاج إلى قسم لأقسمت له بحزن
قبلة ومقام ، وبكل نبي وإمام ، أنه لنسيج وحده في فكاكة الرثاء لا
أن كان للرثاء فكاكة ، ولم لعمر الله لا يكون له فكاكة وقد أرائنا
شوقي في مرآيته أجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكي من يبكيهم كافة
ينمط يلتبس عليك فيه الجد بالزح ، ويقترن المبتك بالمدح -
أفرايت أحدا قط يقسم لك على صدقه في تعداد منافع مرئيه
كانه يخشى التكذيب أو يتقى أن يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة

غير شوقى ؟؟ وإذا اطرده هذا في جميع شعره فلم لا نحسن الظن
وننقله منه على أنه مذهب جديد في بابہ وننخله له اسما في أصول
البلاغة مصطلحا عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا أو اسما آخر
مقبولا لديه أن لم ترق هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من
مراثيه وأنها لكثيرة طويلة بحمد الله الذي لا يحمد على المكروه
سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون في اختراع شوقى لهذا الباب واطراده
في قصائده جميعا وفي أبيات القصيدة الواحدة ، نقول سنريهم
أنها ليست بقلعة نظم أو حقوة خاطر ولكنها أصول يرعاها وأسوم
يعمها ولا ينساها . والا فلو كان حذر من التكذيب واتقاؤه تهمة
المداخلة فلتة سبقت بها قريحته في مطلع القصيدة فماذا كان يدعو
الى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو د والوفود المحضرد
وكمل دمع كلب ولوعسة مزورة

الا ان الامر بين من ينصفون . . . فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم
فاشعرنا الريب واتهم نفسه في ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكلب
واللوعسة المزورة فارانا حكمة ذلك القسم وأنه لم يسدر منه جهلا
بغنون الرثاء وانما تفننا واختراما لم يسبق اليه ، ونرجو أن لا يبارى
فيه . . . قأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهدنا
الرثاء القديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير اسمائها .
فلا بد إذن من أن ينتقى له اسم مبتكر طريف وعليه هو تحرير
قواعده وضبط أصوله ورسم نماذجه .

عجيب والله امر هذا الرجل !! ما رأينا خطأ اشبه بالتعمس
ولا توقرا أقرب الى المجانة من هذائه في رثائه . وما التمس الهزل
بالاجلال قط التباسهما في تأبينه وبكائه . فما كان أفناء عن الحلف
ومبرات الاميرة أشهر من ان يرتاب فيها أو يتنازع عليها ؟؟ وهبها

لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر إذا لم يصدقها الناس
بالإيمان أو البراهين في قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هذا وسأله :
ما باله يفترض أن الناس تبكى على الأميرة بدمع كذب ولوعة
مزورة ؟؟ أصروري هذا ليقول بعمده أن الدموع الكاذبة لا تفنى
منها وأنه .

لا ينفس الميت سوى الصالحة المدخرة
أقول ذلك لأن الدموع إذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت
الميت وأغنته عن الصالحة المدخرة ؟؟ فإذا كان التباكي كالبكاء في هذا
المعنى فلم هذا السخف الذي يفض من المبكية والبساكين وليس له
من جسدوى ؟؟

ونحن ما كنا لتوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا أننا نريد
أن يلمس ضعف تمييز شوقي عن التفرقة بين حالات النفوس
ضعفا لا تنفرد به قصيدة دون قصيدة ، ولولا أننا سمعنا بيتين
منها يرددان في معرض الاستحسان فأحيينا أن نسمح الرغو عن
محضهما أن عساه أن يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت
الأول وهو .

فأطعم من يولد يموت المهد جسر المقبرة .
أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من
السابقين إليه أبا العتاهية حيث يقول :

وعبروا النيسا إلى قبرها فأتوا النيسا لهم معبر
وفصله الممرى وقسمه فقال :

حياة كجسر بين موتين : أول وثان ، وفقد المراء أن يعبر الجسر
وهو أوضح وأوجز في قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة المنيسة واعلم أنها الشيب للمنية جسر
فالذي صنعه شوقي هو أنه سرقه وشوّهه كعادته لأنه جعل
المراء يخرج من المهد إلى المقبرة وما نظن الناس يموتون كلهم أطفالا لا

والصحيح ان المهد اول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية
بقيته .

والبيت الثانى او هو بيت القصيد فى رايهم قوله :

يلفظها حنظلة كانت بفيه سكرة

بمعنى الروح . وقد كان يخطر لنا ان يمدح كل بيت فى القصيدة
خلا هذا البيت ، وهذا من الغرائب فى تضاد الاذواق وانتكاسها .
فقد دل به شوقى على سقم تعبيره واراد ان يقول ان المرء يحب
الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فمكس المراد لانه كنى عن
صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان
اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو انه قال :

يلفظها سكرة كانت بفيه حنظلة

لكان هذا الصواب فى تمثيل تأقف الانسان من الحياة حتى اذا
ادركه الموت خلا مذاقها لديه وكره ان يلفظها كأنها « السكرة » !!
ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشى على يديه او ينام على بطنه فىرى
العالم معكوسا ...

ومن ترهات شوقى التى يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه
القصيدة :

وكل نفس فى غمد ميتة فمششرة

فالنفوس لا تموت فى قد فحسب ولقد ماتت نفوس لا تحصى
امس واول من امس وقبل ذلك بالآلاف السنين وهى تموت اليوم
بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى ان يقول : ان كل نفس تموت
منشرة غدا - فخانه الاداء وخللته العبارة وهى لو استقامت له لما
جاء بطائل .

واما سائر ابيات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقادهما
وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقى فلا
نضرب فى الهواء ولا نطرح فى البوتقة الحصاء ، والشعر اذا تساوى
فيه اللقد والاغضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

ماهذا يا ابا عمرو؟؟

مصطفى افندى الراقى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه بركة
رأسه مراكب يترىث دونها الحصفاء أحيساتنا وكثيرا ما يخطئون
السداد بتريشهم وطول اناتهم . وطالما نفقه التطوح وأبلغه كل أربه
أوجله اذ يدعى الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع
تكذيبه فتجوز دعواد وينق الحافه عند من ليس يكرتهم أن يخدموا
به . بيد أن الاعتساف اذا كان رائده الخرق فى الراى وشيك أن يوقع
صاحبه فى الزلل احدى المرار فيضيق عليه ما لو علم أنه مضيقه لفداه
بكل ما فى دماغه من هوس وما فى لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق
الفكر وركوب الرأس بمصطفى الراقى فحق علينا أن نفهمه خطر
مركبه وان قدميه أسلس مقادا من رأسه لعله يبدل المطية ويصلح
الشكيمة .

أصدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب فكان مما تقدناه فيه تشيد
شوقى وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجماع ما ينظر اليه
الراقى لأنه لا لبالى اذا سقط التشيد أن تحسب كل خرزة من
بضاعة شوقى جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة ١١ ولكنه
مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من منسده
مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب منا الكنانة والبخيرة فلم يدع
فى طبعة نشيده الثانية وجها من أوجه النقد التى اثينا بها الا انتزعه
وبدده وفاته أن القديفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزمين .

ولقد أحسن بنا الظن وأساءه فلم يستغن عنا ولم يقدر فينا التنبيه
إلى صنيعة ، وما له عاقاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوة علينا
وتحن يسوعنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجتراءهم على
غير سياجنا ؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الإغذار ولكنه أذن لنفسه
ينغاية الإفراط ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط .
فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامى كما تكتفى نفسك أو يا أبا
عمرو كما تقول للجنة الأفاضل في خطابك فإن صاحب المساكين حري
أن لا يفتصب بالسيف كما صنعت وفي رائعة النهار .

قلنا في نقد نشيد شوقى أن النشيد القومى يجب « أن لا يكون
وعظايل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب » .
فرجع صاحبنا أبو عمرو إلى نشيده فحور منه ما استطاع
بضمير المتكلم فقال :

إلى الصلا في كل جيل وزمن فلن يموت مجسدا كلالن
وقد كان هذا البيت في الطبعة الأولى :

إلى الصلا في كل عصر وزمن فلن يموت مجسد مصر لا ولن
ولما أن طوى هذا الضمير ووثق من مواراته ونفض من يديه
ترايه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئا وصاح يؤنب شوقى
لقسوله :

على الأخلاق خطو الملك وابنوا الخ .. الخ .

ويسأله : « ومن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسه
أم من شوقى للشعب ؟ ص ٧٩ » كما سألنا من قبل : « فمن الذى
يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟ » وكما أخذنا عليه
« أنه لصتوطا مطية الفلسفة والمواعظ » .

واتكرنا من نشيد شوقى أنه « قد حسب أننا سنظل طوال
الدمر كلابنا في يومنا هذا فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به في جميع

المصور أن يتهيا مكانا وأن لا تبرح نـشـرع في التمهيد وناخذ في الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشيد الأركان » .

فجاء أبو عمر البيهقي فقال : « وإذا قيل اليوم لبنى مصر هيا مهدوا للملك ومكانكم تهيا فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعـد ألف سنة وما شاء الله وإلى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله في تمهيد ؟ » ص ٧٨ .

وعقبنا على قول شوقي من الشمس : « ألم تك تاج أو لكم مليا ؟ » بأن الشمس « لم تكن تاج القرامنة وإنما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها » .

فعلمت البيهقي أيضا « أن زعم شوقي أن هذه الشمس كانت تاج أولية المصريين خطأ بين وإنما كانوا ينتسبون إليها ويعبدونها » ص ٧٩ .

فله ما أعلم البيهقيات بالتاريخ إذا لقنته ||

وعبنا على شوقي تخفيف الهمزات وأنه صير « سئلت » سئلت و « تهيا » هيا و « شينا » شيا .

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل في همزة سئلت لم يفهمه إلا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الأساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢ .

فمنذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الأساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة ||

ورويتا أن بعض اللحنين والظرفاء يستقبحون تلحين نطاول مدهم عرا و « فخرا » الخ الخ .

لأن التلحين لابد أن يسقط في التشديد فيخلفه المد وترجيح الصوت . قالوا « وإذا انتهى التشديد مثلا إلى كلمة (فخرا) ومد

بها صوته ورجمه فأى رائحة تفوح منها ؟ ثم قلنا : « ولسنا نحن
معن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعلم المنشد » .

فروى هو كذلك عن الأدباء والملحنين أنهم : « تنادوا بقوله فخرا
وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا أنها مما لا يدوقه أحد
الشعراء من طعم كلامه » . ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هذا
السخف فلندعه .

أترأه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه !!

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذى صعب الزمانا ومن حديثاته اخذ الامانا
ونحن بنو السنا الصالى نمانا اوائل علمسوا الامم الرقيسا
لان الناظم ساقها مساقا ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز
له النفوس » .

فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجبا : « كيف
غفل شوقى من أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣ .

فأسأله بالله ثم أسأله كيف غفل أيها الراصد اليقظان !!
ونقلنا من بعض أعضاء اللجنة أنه لما تليت هذه المقطوعة :
على الأخلاق خطوا الملك وابشوا

فليس وراءها للعمر ركن

ليس لكم بوادى النيل عدن

... الخ الخ

قال : « إن البيت الثانى منبتر وسأل : ما العلاقة بين النصح
ببناء الملك على الأخلاق وتشبيهه وادى النيل بـ « الكوثر » .

فترك هو القاتل والراوى وذوى وجهه عنهما وصاح وحده !
« كلام مقطوع عما قبله » . وسأل من لدنه سؤاله : « فاذا كان لهم
بوادى النيل عدن وكوثرها فماذا ؟ » ص ٨٠ .
ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفيثا الصليب على الهلال
ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد شديد فاننا ان سمينا الوطن ملة
ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟ » .

فوضع اصابعه فى اذنيه - او لم يضعهما - وأصر وولى واستكبر
استكبارا وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فاذا : « زعم انه يريد بملة ذى الجلال الدين مطلقا قلنا له فان
القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وكل
هذه الاديان ملة ذى الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولا اشارة الى الديوان ولا كلمة يستشف منها ان احدا
تقدمه الى هذا النقد بل لعله قصد الى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة
انها طبعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسى لفظة ذهنة انه ضمنها فى
صفحة ٦٧ كتابا للاستاذ منصور افندى عوض مؤرخا فى ١١
ديسمبر ...

فهذا الخلق البغيض ونظائره من جرمومته هى التى تملأ
نفوسنا تقزاز وعزوا من ادب الجيل الماضى وأدبائه ، ومن صنماة
من ينتسبون اليها ولكن ليس لها ما لاحقر الصنماة من حرم يرمى
ودستور يفاء اليه ووازع يوقف عند حده - أرجحهم منها سسهما

أجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وأرغمهم فيها أسما
أطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعا تقيضان
من شعور بالمعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها
ولا حقوق لذويها ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ،
وما على المحترف بها ياس من السماجة والافتراء ؛ وإنما الباس
كل الباس عليه من المروعة والحياء .

ولقد اتصلت بنا من عرض كلمات نبس بها بعضهم في جلسة
لجنة الاغاني فقيدهاها لهم وأينا لأنفسنا أن تدخلها في كلامنا مع
أنها أهون وجوه النقد التي أخذناها على النشيد ومع أننا تحدثنا
بها لأصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل أن
نسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لا يستحي أن يسم نفسه
على خلاف رسالته «بنايته كتاب العربية وزهرة شعرائها» يعتمد الى
نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن انمامه فينتحله
جملة ولا يفلت منه كبيرة ولا صغيرة حتى بسميتنا مشاهير المذهب
العتيق بالأصنام (١) ثم لا يرى أن عليه بعد ذلك أن يوحى بفرد كلمة اليه
ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الاناشيد ، كأننا حين كتبنا نقدنا
في مصر كان هو يكتب رسالته في اقاصي الصين أو أطراف السويد
ولا ندرى وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون
منها والهزيمة ؟

ولما أراد أن يعتمد على نفسه في وجه من أوجه النقد لم نذكره
وظن أنه فأتنا أبلغ في الفند والسخف فنمى على نشيد شوقي خلوه

(١) قال في صفحة ٦٩ « جهد أكبرهم أن يفرد أصنام الطبقة التي هم دونها
ليكونوا بذلك أصناما للطبقة التي هم دونهم » وقال في صفحة ٧٠ « وكم من صنم
قد تغفل بأمله ونزعت شياطينه وانفجرت وذالته فإذا ذهبت صلح منه التوى
عليك »

من لفظتى الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذا الأعمه أمة
تتغنى بأنها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه في مفاخرها
بما ليس يتحقق لها كيان بدونه .

إيه يا خفافيش الأدب . أغثتم نفوسنا أغشى الله نفوسكم
الضئيلة ، لا هواة بعد اليوم . السوط في اليد وجلودكم لثل هذا
السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان فأكثروا من مساوئكم
فإنكم بهذه المساوئ تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها
حسناتكم إن كانت لكم حسنة يحصها الأدب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

صنم الألاعيب (٢)

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق أروضنا اثنين :
أهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يابون ألا أن يعدوا شكرى من
دعاة الجديد وألا أن يحسبوه علينا وياخذونا بشعره ولكن هؤلاء
سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نميط الأذى عن المذهب
الجديد وننقى عنه وخامة شكرى . وليس بعيننا أمرهم ولا نحن
نبالى سخطهم من رضاهم فانهم فى رأينا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعلمون من أهمل البصر والاتزان
وسلامة الذوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم
لصلاح الأدب ونقض غبار الماضى عنه . ولهم لا لسواهم كلامنا .

أما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على اكتافهم رؤسا
وكانما حملوا معدة أخرى لا عقلا يفكر وذمنا ينظر ويتدبر . وهم
يطالبوننا أن لا نشيم الخير من أحد وأن لا يكون لنا رجاء فى مخلوق
مخافة أن يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا فى محذور
وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى وسمه !! فياورىنا لقد اسخطنا والله
هذه المعدات الضافية وهجنا ثعالها اللاحسة بنقدنا شكرى الذى
« وضع أهم أحجار النهضة وضحى فى سبيلها شخصيته وشهرته »
كما يقولون . ولكن لا ضمير علينا من غضبهم ولا داعى لهذا الغضب
فانا لا ننكر أن شكرى « ضحى بشخصيته » !

مسكين هذا الصنم !! لا يعرف لكمه ماذا يقول . ويتطوع
المشفوق عليه للدفاع عنه فبجىء دفاعهم أقتل له من تقلنا .
وينقمون منا انا جعلناه صنم الالاعيب وهم يسخررون منه
وبتضاحكون به . وماذا يجدى فؤدهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى
نخلص له النصيح ونمحضه الراى والسداد ونشجعه ونفتبط بما
نراه من تملله من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة
فى التحرر ونجرى مع الامل فيه فهل كان علينا ان نظل العمر طامعين
فى غير مطمع ؟ ثم اعملناه على شىء من اليأس منه ثم نخشنا له وعنفنا
عليه فى الزجر فلم يفن لا الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا
راكبا راسه حتى احفاه ؟

ولقد كنا فى كل ما كتبناه عنه فى اول عهده بقرض الشعر لا نفعل
الى جانب التشجيع ان ننبه الى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء
الثانى من ديوانه « انه يطا مفاخر الصنعة بقدميه » وانه « لا يتعهد
كلامه بتهديب او تنقيح ولا يبالى اى ثوب البس معانيه » وعللنا
بومئذ جموحه هذا بأنه « نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء فى المنهج
القديم ولجأجتهم فى احتذاء المال العتيق » اى انه نتيجة رد فعل
فهو تطوح وتطبيق للعقل يقابلهما من الجهة الاخرى غطيظ المقلدين
لى كهف الماضى وكان ذلك فى ١٩١٣ فهل يرى احد ان راى اليوم
لا يتفق مع راى الامس ان صح ان هناك راين ؟ كلا لقد ادينا
الواجب له وللادب قديما ولكننا اليوم تؤدى حق الادب وحده .

ومن المضحكات ان رسالة وردتنا بدون توقيع فيها كاتبها
« انك تتهم شكرى بالجنون وانت مثله والجنون فى شعرك كثير »
وما رمينا احدا بالجنون بل قلنا ان ذهن شكرى متجه ابدا الى هذا
الخاطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالة . على ان كونى مجنونا
لا يشفع لشكرى ولا لسواه فى شىء جل او دق وما اتهمنا شكرى
ولا تقولنا عليه ولكنه هو الذى يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل فى
كتابه « الاعترافات صفحة ٧١ » :

« انى أسوء الظن بكل شيء سواء الحميد والذميم فلا غرو اذا رايت فى الضياء ظلاما ورايت فى سواده ما يخلقه سوء الظن من الأوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى أذنه فاذا تلفت الى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليمنى واذا تلفت الى يساره وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليسرى ومن العجيب ان هذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحها لتخدعنا بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها (!!) هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامه كما يمرح الطوطاء فى الظلام وتؤدى بالمرء الى الجنون (نعم قد عانيت من أجلك الجنون وجرعت كأسه المرة وبلغت أعماقه ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه . ذلك الجنون الذى لا ينسى المرء الفكر والأمانى) اهـ .

فهل رايت أيها القارئ أننا فيما كتبناه من شكرى أكثر اعتدالا منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالغ فى شيء ففى الحذر والاحتياط وفى التحرز من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخيها للقصد وتحريها للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا ان شكرى بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الختواس وأوردنا شاهدا على ذلك وفى النبرة التى اقتطفناها من « الاعترافات » شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هذه الشياطين لا تخفى قبحها بل تظهر قبحها فى (حركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المحاز فى شيء فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا الى هذا الغرض والتأويل فقد سد بابه بإعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا فى اعترافاته ص ١٠ .

« ويسمع المحب انقاما والحنانا (غريبة) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى اشكالا هندسية بديمة لا تسمع عنها فى كتب

الهندسة ويرى ازهارا خيالية لا يعرفها الباحثون في علم النبات «
فهو يسمع ويرى ما يعلم ان لا وجود له وفي هذا تأييد لقوله في
وصف جنونه « ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون
من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه » .

وشكرى قديم العهد بالشیاطين والعفاريت قال في ص ٢١ من
الاعترافات :

« لقد كنت في صفرى كثير الاعتقاد بالخرافات وكنت الشمس
المجائز من النساء اسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه
الفصوص تملأ كل ناحية من نواحي عقلی (وحتى صارت) عالما كبيرا
ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العفاريت حولی تحل حيث
أكون . وأذكر انی رأيت مرة عفريتاً على سطح منزلنا وكان أسود
الجسم شخصه مثل شخص الانسان ولكن جسمه يعلوه الشعر
الكثيف » .

وليس ذلك في صفره فقط بل هو الآن بعد ان كبر وبلغ أشده
كما كان في حدائته .

انظر قوله في ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفي بعض الاحايين أخاف خوفا شديدا ان يظهر لى إبليس .
فأتلفت كى اثق انه لم يظهر بعد وفي بعض الاحايين أعتقد وجسود
العفاريت والجن كما كنت أعتقد في أيام صفرى لقد سمعت البارحة
القطط تعوى وتصرخ مثل عواء (المجائين) أو عواء الأرواح الحائرة
المعذبة (التى تتخذ الليل جلباباً ثم تفرغ في ذلك العواء ما تقاسيه
من العذاب فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس اذا حاولت الكلام
لم أشك في أنها عفاريت من الجن وأصابنى رعدة شديدة » .

وتأمل تدقيقه في وصف هذه الأرواح الحائرة التي يذكرها وكيف أنه لا يجد تمثيلا لمواء القطط - لا عوائها - إلا بعواء العفاريات وكذلك كل صوت في سمعه قال في ص ٢٦ :

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت في ولدها » وهو بعد يلتذ المرعبات كمنظر النار تاكل الدور قال في ص ٣٤ « اذكر انى رايت مرة حريقا هائلا في جنح من الليل فهيج في قلبى عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج اعماقتها وجعلت اشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناي حتى كدت ارى بريقها وصارت النار تاكل المنازل فتندم وتنهال وتتصاعد السنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى اوجها نور يزيدنا تحويلا وكنت احس لفح تلك النار في خيالى وذهنى .. هذه هى المناظر التى (التذها) ومن الغريب انى يخيل لى ان هذه المناظر وما تبعته من الاحساس تعين المرء على ان يفهم الحياة ومعرفة مبرها » .

ثم تصور شكرى واقعا له ما يصفه هنا في اعترافاته ص ٧٢ :

« ما رايت اثنين يتساران الا ظننت انهما يذكراى بسوء .. او احدا ينظر الى الا حسبته يحدث نفسه عنى بسوء وانى لاسىء فلنى الآن بمن سيقرا هذا الكتاب وما رايت احدا ينظر فى يسابى الا حسبته راى فيها شيئا خفى عنى وما رايت احدا ينظر فى وجهى الا حسبته راى فيه شيئا قدرا وما رايت احدا عابسا الا حسبته يعبس من اجلى بغضا او حقدا وما رايت احدا باسما الا حسبته يستخر منى ويهزأ بى وما سمعت ضحكا لم اعرف سببه الا خجلت بخجلا شديدا وحسبتنى فرضا لذلك الضحك (ومن اجل ذلك هيرت اعبس فى وجه كل من يبسم فى وجهى من الناس الا من عرفت

سبب ابتسامه وأحيانا أعرف سبب ابتسامه فلا يمنعنى ذلك من
إساءة الظن به)

وليست خواطر الجنون وسوء الظن والعماريات كل ما يملأ
ذهن شكرى فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام .

قال فى ص ٧٥ من الاعترافات :

« الفرع من التهم ضرب من سوء الظن والجبن لقد رايت فى
الحلم البلوحة انى اتهمت (كذبا) باتيان جريمة ولم يكن عندى ما
أدفع به التهمة فصرت اصيح أمام القاضى وأقول أنا برىء والقاضى
يهز رأسه ولا يصدقنى والشاهد الكاذب يبتسم ابتساما خبيثا ثم
رايت بعد ذلك انى اساق للسجن والاعدام انه لحلم يفرع .. انى
لاذكر انى اتهمت (زورا وبهتانا) فى ايام صفرى بسرقة علبسة من
الحلوى ولا ازال اذكر ما نالنى من الفرع ان تكون الحياة كلها تهم
(كذا) باطلة .. على انه من (جنون) اليأس والفرع والجبن توقع
ما لم يحدث من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع » .

ولا ينبغي ان تفوت القارىء ملاحظة تنبيهه دائما الى ان هذه
التهم مزورة كاذبة حتى التى حلم بها فان لهذا الخوف منه ان
يصدق القارىء ما يرويه معنى ولا شك .

وقال فى ص ٨٥ : « بحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ان الناس
منقسمون بفطرتهم الى قسمين فهم إما مجرمون وإما أبرياء وهذا نظر
قاسد فان فى نفس القديس جرثومة الاجرام .. اى الناس لم تخطر
بباله خواطر الاجرام ولم يفرع مما يتحرك فى نفسه من حشرات
الشر .. لقد مرت بى ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التى تدفع
المراء الى الشر فان الجريمة مثل السراب اللامع والحياة كالصحراء
القائلة الحرارة والمراء فيها كالصحرا الظلمان يليح له سراب الشر
(بضيائه) فيريد ان يروى ظمأه ويتقنع غلته أنا اليوم برىء ولكن
ما يلزمنى ربما كنت فى غد مجرما ربما تحركت عوامل الشر التى فى

نفسى . . وكنت أشفق على المجرمين وأملأ لهم قلبى رحمة فانه لا يحزننى فى الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التى يجلبها الاجرام للمجرمين لقد رايت فى الحلم مرة انى اتيت جريمة القتل ثم وقفت امام جثة المقتول وقد احسست دوارا وصار العرق يتصبب على جسمى وكنت احس جريه كأنه دبيب الحشرات وقد جهد الدم فى مروقى واسودت الدنيا فى عينى وكلما أردت ان اتنفس احسست شيئا يسد مجرى النفس وكنت احس صوتا كأنه صوت اعصابى تنقطع فيحكى صوت تقطع اوتار العود وكنت يخيل لى كأن يدا من جليد قد وضعت على ظهرى هذه الاحلام التى تمكن الاديب ان يعدم شخصه فى اشخاص غيره وان يلج الى ارواح الناس وعواطفهم وان يرحم المجرم كما يرحم النعيس .

وقال فى ص ٦٢ : « ليس من سبب لبغض المتحرين وانتقامهم الاحب الاحياء انفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة ان انتحر فرارا من سلطان الفضاء فاخذت سكيناً وادنيتهها من صدرى ثم قدرت مكان القلب وقلت هنا ينبغي ان اضرب نفسى الضربة القاضية فلم تهن على نفسى فقلت الليلة الآتية افعل ذلك ولما انت تلك الليلة ارجأت الانتحار الى ليلة اخرى حتى افكر فى طرق الانتحار واختار منها واحدة . »

وقد فكر فى الانتحار مرة اخرى لسبب هذا خيره قال فى ص ٩٦ :

« انى لا ازال اذكر ذلك اليوم النحس الذى لطمنى فيه شقيقى لم يكن يدري مبلغ اساءته فرفعت يدي لألطمه ولكن الجبن واخاه الحزم همسا فى اذنى قائلين انك اذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو اقوى منك فلا تصببه الا ببعض ما يصيبك فخير لك ان تتحمل اللطمة الاولى وان تنجو سليما فوقع يدي الى جانبى واحسست ان روحى قد سلبت أجل شيء فيها فنظرت الى ما بين قدمى لارى ما سقط منها من العزة والانفة والشجاعة لم احسست كان عظامى قد احترقت

ولم يبق الا رمادها وخارت قواى وعرتنى حيرة وشككت فى الحياة
فجعلت اعدو من الغيظ وقد اسودت الدنيا فى عينى وجعلت انظر
الى المارين وهم ينظرون الى فارسيهم بلحاظ المقت والكراهة لاني كنت
احسبهم يسخرون بى ويعرفون ما حدث لى ويفهمون سر روحى
التي اهيئت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير وهممت ان
ارمى نفسى فيه ولكنى هزأت بنفسى تلك النفس التي تفر من اللطام
الى الحمام ثم ذهبت الى البيت .. وخطر لى (ان انابط سكيننا
او مسدسا وان انتقم من ذلك الشقى فاقتله) ولكن الحزم والجبن
وهما سمرى وتصيحان الاحا لى بالقضاء والمحاكم فجعلت اقترض
استثنائى من الغيظ حتى تكسر بعضها وكنت فى حالة من حالات
(الجنون) اهـ

على انه تشجع مرة بعد هذه واراد ان يظهر انفته وعزة نفسه
فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكها بعقب هذه المرات .
قال فى ص ١٨ :

« فلما احتدم الجدل بيننا وخفت ان يبدأ اللطام بدائه به فان
المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت اريد ان يخر
مغشيا عليه شها ولكنى خفت ان افقا عينه او ان اصيب احد اعضاءه
بتلف دائم او ان تكون ضربتى هي القاضية فتعود على بالطامة
وبالعقاب الشديد .. كل هذه الخواطر جالت فى ذهنى عندما
سددت يدي لالطمة ومن اجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديدا
فمد الى يده باللطام ولكن بخيل لى انه لم يخش ما خشيت من
العقاب وانما استنتجت ذلك من وقع لطماته فانصرفت بانفهمهم
وعين سوداء حمراء زرقاء كانها قوس قزح » .

وقلنا من شكرى انه ابكم فكاننا اخترعنا شيئا وحسب البعض
ممن بظنونا تلقى القول على عواهنه ولا نبالي ابن وقع من الحقيقة
اننا نستطيل بلساننا عليه مبالغة فى ايجامه وتنقصه والزراية عليه

ولهم العذر اذ ما ادراهم انه هو القاتل في ص ٢٩ من الاعترافات :
« اتى في خلوتي بنفسى اعد الكلام البليغ والحجج الراجحة
والكلمات البليغة واتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون
كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى اذا لقيت هؤلاء
وحادثتهم لم اجد فى كلامى هذه الايات البينات . ثم اذا خلوت
بنفسى بعد ذلك اقول كان ينبغى ان اقول لهم كذا كذا فينطلق
لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكن اى مزية فى ان يكون المسرء
(عيبا) فى المجالس فصيحاً فى الخلوات ؟ وهذا سبب من اسباب
انفرادى ووحدتى . ويرى الناس (سكوتى) ووحدتى فيحسبون
حياتى هادئة مطمئنة » .

وليس الامر عنده من قبيل صمت الفكر او الحزن او
قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعص . قال فى صفحة ٤٧
من الاعترافات :

« لقد كنت فى صغرى كثير الحياء وكنت انظر الى جرة اترابى
من الفلمان (وحسن لهجتهم) واعجب بها واتمنى ان اكون مثله .
اذكر ان ابى زار بى صديقا له من الفرنسيين وكنت صغير السن
وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى ف جاء الفلام وصافحتنا وحيانا
(بفصاحة وطلاقة ورشاقة) اعجب بها المحاضرون وصاروا ينظرون
الى ويضحكون » .

ولا تظن بنا الآن حاجة الى استقصاء « الجنسون » فى شعره
بعد اقراره به وتقريره انه جرع كأسه المرة وأنه وصل الى أعماقه
وأنه يحس بجنونه ويعرف أسبابه ونتائج لا كأولئك البيمارستانيين
البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون أنهم مجانين

وفي الناس كما أبون حتى على أنفسهم ولكننا عاشرنا شكري
 أعواما طويلة رحالطنا وبلواناه ولا نراه بالغ في شيء مما وصف به
 نفسه بل لعله آثر السكوت عن أشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه
 وملاسيه . ولا يمكن أن يقال في الرد علينا وفي تبرئة شكري مما
 قرف به نفسه أن « الاعترافات » صاحبها وجل أجر اسمه . ن
 وإن شكري ليس إلا ناشرا لها فإن هذه الاعترافات ليست الا طائفة
 من المقالات لا يربطها شيء الا ضمع المتكلم وقد نشر شكري أكثرها في
 « الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على أنها له ثم عاد فجمعها
 في كتاب طبعه في ١٩١٦ ويرى قارئ الاعترافات أبيات شعر كثيرة
 واردة في اثنائها وفي الهامش أنها من شعر المؤلف وصاحب الأبيات
 هو شكري وربما ذكر اسم القصيدة التي هي منها وقد يعين الجزء
 من ديوانه الذي وردت فيه .

ومما هو خليق أن يبعث القارئ على الركون الى هذه
 الاعترافات وتصديقها. انه يجد مصداقها في شعره فكما أنه قال في
 الاعترافات في نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال في شعره
 « فقد أغرم الانسان بالشر والاذى » وقال :

كل نفس فيها الخير والشر

دواع طويلا الاغصاء

وقال معترفا انا اليوم بريء ولكني ربما كنت في غد مجرما ومن
 شعره

ربما شب بين جنبك للشر

ضرام ما ان له من فناء

انت في اليوم واسع الجاه غص ال

خير لسدن الرخاء رطب الرجاء

خالص الكف من دماء قتيل

ايمنى الطبع لم يشب برباء

ربما كنت في غدا أشعث العج
ح لئيم الخصمال جم الشقاء
خاضب الكف من دماء عسود -
طائر الضغن تائر الشجناء
وقلنا ان ذهنه مشغول بخواطر الاجرام والقتل واورنا بلدا من
أعترافاته وفي شعره شواهد كثيرة على ذلك فبينما قصيدة « الزوجة
المادرة » وهي قصة امرأة أرادت أن تسمه نفسها هو :

وهي قد أفرغت لي السم في كوبي
وقامت تصر غير بعيد
ثم غافلتها وأفرغت كوبي
فسوق ماء بكوبها منزور
ثم قلنسا من الطعام بلاغا
وشربنسا سرا من التصريد
ثم جاء اليوم الجديد فنامت
زوجي الرود نومة القيسور
فصل السم فمله في حشاها
ودهاها من السردى بقيسود

ومنها قصيدة عنواتها « أم اسبرطية قتلت ابنها » وهو فيها
يبرر هذه الجناية لأنه فر من الحرب قال وقد نسي انه هو أيضا
جبان حتى في موطن « اللطام »

أيها الخائن الجبان خشيت الـ
موت والموت حادث مقسود

ان اما تعزى لها قتلت في
قتلك العسا لم يصيبها معيب

ومنها قصيدة اسمها « قبلة الزوجة الخائنة »
 لقد قبلتني قبلة مرة
 كأنها من حملة العسرب
 تنهش جسامها لم يكن نهزة
 لشاحذ الأتياب والمظب
 لولا وميض الزاي يقتلاني
 يميلني من سفه المفضب (٢)
 جلتهما بالسيف امحو به ال
 لنب بسلنب رائس معجب

وتأمل في هذه الأبيات همس « الجبن وأخيه الحزم » وكيف أنه
 يصف الجريمة بأنها رالمة معجبة ، ومنها قصيدة العقاب بالقتل
 وفيها يندر المجرم

اطيلوا حياة الجارمين فانها
 حياة اذا سسد المطامع عاقر
 لقد اخلفتهم بلقة العيش برها
 زمانا وحابات الحياة غوادن
 فبنس حياة المرء والفقر عاكف
 عليه واسباب الحياة جرائر
 هنا لك انى للفقير لساذل
 وانى له مما يعانيه عاذر

كان كل من يجرم يكون باعته الفقر والخصاصة : وله عندا ذلك
 أبيات كثيرة في تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبته
 فلو كنت بين الناس ربا معزى
 ونادوك انى فانتك النفس جسام

لألفيت غفرانا لديك ورحمة
فهما يَغْفِرُ الزلات إلا الأعظم
وقوله :

رحمت أسعى كمصحر بان عنه ال
صحب فردا ذا وحشة واطراح
أو كذى الجرم حين طال به السجن
يفسّل الطريق عند السراح
وقوله :

كان هموم المسرء ذنب مراوغ
فيا يؤس مقتول ويا يؤس من نجا
وفى واعترافاته أنه يحلم بأنه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك في
شعره

يرى الناس ان النوم ام رحيمة
ولكن نوم الجارمين عقاب
يسل على العظم اسسيف نعمة
فاحلام نومي كالبحيم عذاب
كم هدم من عزم صليب عذابها
وشيب وراة النوب فشبابوا
ومنها :

وغيرنى عما عهدت جرأتى
فليس الى الحال القسديم ايات
فلا تحسبن الشر يعنى بتوبة
وان غفر الجرم العظيم متاب
يوافق كل الناس بالفكر شرهم
ولقد عابنى انى جرؤت وهابوا

وكم حدثت بالشرذا الخير نفسه
وذلك حديث ما عليه عقاب

وقد شبه في اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضياء
وكذلك فعل في هذه القصيدة

ظمئنا فخلنا الشر في العيش منهلا
لكن ورد الجسارمين سرايب

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبته وبرر ذلك ولم يرفيه مائما
وان بقلبي من جفائك (جنة)
فلن رام يوما قتلكم ما تائما

فاسقى جنوني من دمائك جرعة
وهيهات يجدى القتل قلبا مكلما

الى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تفصيله وما بقى من شك في
ان الرجل ممسوخ الطبيعة

هذا هو شكرى قد رسمنا لكم صورته بقلمه وهذه هي صفاته
وميله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شاذ غير مألوف في القطر
السليمة والطباع القويمة كما نعرفها ويعرفها الناس فهل بالفنا
الهم لا ! وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سليم ! كيف والطبع
أعوج والذهن مقلوب والعين تنظر الى الحياة من منظور معكوس يريها
الاشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها !

((ابراهيم عبد القادر المازني))

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٩٦/١٤١٣٢

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م